

اقراء

الدكتور عبد العزيز جادو

أضواء
على النفس البشرية



دار المعارف

اقرا

[٥٣٠]

أضواء
على النفس البشرية

اهداءات ٢٠٠١

أ.د. محمود دياب

جراح بالمستشفى الملكي المصري

الدكتور عبد العزيز جادو

أضواء على النفس البشرية



دار المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

للأستاذ الكبير: عبد الكريم الخطيب

﴿الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين،
إياك نعبد، وإياك نستعين، اهتدنا الصراط المستقيم، صراط الذين
أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين﴾
والصلاة والسلام على إمام المرسلين، وخاتم النبيين، سيدنا
محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين إلى يوم الدين.
وبعد، فإن لا أذكر أني قدّمت لكتاب غير كتبي، حيث تكون
المقدمة مدخلا إلى موضوع الكتاب، وتمهيدا له..

وكان اعتذاري لمن يدعوني إلى تقديم كتاب من الإخوان
والأصدقاء، هو أن لا أريد أن أسبق القارئ في الحكم على
الكتاب، والآلقاء ابرأى فيه قبل أن يتصل بالكتاب، ويصدر هو

حكمه عليه، غير متأثر برأى غيره، فذلك مما يشد انتباه القارئ
للكتاب، ويغلي المكان لها من غير رقيب!!..

فالذي يلتقى بكتاب بعد أن سمع آراء بعض الناس فيه، مدحاً
أو ذمّاً، استحساناً أو استهجاناً، يصعب عليه كثيراً أن يتخلص من
آثار تلك الآراء التي تتخيل له، وتميل به إلى متابعة هذا الرأي أو
ذاك منها.. إن البضاعة الجيدة يتراحم عليها الناس، من غير إعلان
عنها، أو دعوة إليها. وإن البضاعة الرديئة لا تشفع لها عند الناس
المتناف لها، والصراخ من حولها..



من أجل هذا كدت أعتذر لأخي وصديق الدكتور العالم الأديب
عبد العزيز جادو، حيث تفضل مشكوراً بدعوتي إلى أن أقدم لكتابه
«أضواء على النفس البشرية».

نعم كدت أعتذر عن قبول هذه الدعوة الكريمة، لسولا أنسى
وجدت نفسي مدعوة منى بداعيين، لا يقبل عندهما عذر أعتذر به..

وأول هذين الداعيين، هو مؤلف هذا الكتاب نفسه، وما أحمل
له في نفسي من إكبار وإجلال، لمواقفه الجادة المجيدة في إحياء أجداد
العروبة والإسلام. وذلك بقيامه في محراب العلم، كاشفاً عن آثار
أسلافنا - رضوان الله عليهم - في فتح مغالِق العُلُوم والفضون،

وقيامهم بدور الأستاذية للعالم كله. الأمر الذي شهد به الغرب لهجـ،
على حين أننا - لآفات عرضت لنا - كدنا لا نلتفت إلى هذا المجد
العظيم، مبهورين بما جدّ للغرب من علوم ومعارف، وهى فى كثير
منها قائمة على أصول مستمدة من علوم أسلافنا ومعارفهم..

والدكتور عبد العزيز جادو، واحد من هؤلاء الأفاضل القلائل من
علمائنا، الذين يحاولون فى صدق وعزم، أن يصححوا هذا الموقف
وأن يلفتونا إلى ماضينا العريق، الثرى بالعلم والمعرفة.. وكان من هذا
أن أخرج الدكتور جادو موسوعة من الكتب، وأعداداً لا تحصى من
المقالات والأحاديث، تدور كلها حول القضايا المعاصرة التى أثارها
العلم الحديث فى الغرب، فدارت بها رءوسنا، ودُهلت لها عقولنا،
وإذا بالدكتور جادو يتناول هذه القضايا بمؤلفاته، وأحاديثه، ومقالاته،
ويأتى لها من أسلاف علمائنا بمن يناظرون علماء الغرب، ويقدمون
الحجة عليهم بأنهم مسبقون إلى هذا، وأن ما بأيديهم هو بعض مما
سبقهم إليه، ولسان الحال يقول لهم: «هذه بضاعتنا رُدّت إلينا».

وليس هذا من الدكتور جادو بالشىء القليل، فى الحال التى نتبها
فيها للنهوض من كبوتنا، واسترداد ما سلبت الأيام منا.. الأمر الذى
لا يمكن أن يتم لنا إلا باستعادة الثقة فى أنفسنا، وأنا صناع أجداد،
وناة حضارات، وأساتذة رواد فى مجالات العلوم والفنون..

ولا شك أن هذا الذى كان من الدكتور جادو يقتضى التشويه

به، وسوق الحمد له، والشاء عليه، اعترافاً بفضله، وحفزاً للهمم السائرة على طريقه.

وإذن، فإنه إذا كان لي أن أعتذر عن تقديم هذا الكتاب، فإن الحق يقتضي أن أتوه بصاحب الكتاب، وأن أشدّ على يديه، داعياً له أن يمضي في هذا الجهاد المبرور، لمسح عرق الخزي عن وجوهنا، ونحن نستجدي الغرب، ونقف منه موقف الأيتام من مادية اللثام.

وثان الأمرين الداعيين إلى عدم الاعتذار عن التقديم لهذا الكتاب، هو الكتاب نفسه.. فإنه يعالج قضية من القضايا السني تواجه المادية التي قام لها سلطان في هذا العصر، طوى تحت جناحه أمّا كفرت بما وراء الحس، وأنكرت وتنكرت لكل ما يقع تحت سلطان الخواس.. فكفرت بالله، وباليوم الآخر، والحساب والجزاء، والجنة والنار، بحجة أن أيّاً من هذه الأمور لا تأتيها الخواس نبياً عنه.

فهذا الكتاب الذي أعدّه الدكتور جادو ليعرضه على الناس تدور مباحثه حول النفس.

والنفس في عالم الماديين أمر لا وجود له؛ لأنهم لا يسيرونها بأعينهم، ولا يلمسونها بأيديهم، ولا يسمعون لها حديثاً بأذانهم، ولا يذوقون لها طعماً بالسنتهم.. وإذن فهي عدم، أو خرافة تأخذ مكانها في عقول الحمقى والمدلسين من الناس!!

فإذا تقرر بالعلم، وثبت بالتجربة أن هناك نفساً تأخذ مكانها في كل إنسان، إنهد بناء الماديين على رؤوسهم وقامت عليهم الحجة بأن وراء الحواس حقائق لا تتناولها الحواس، ولا تخضع لحكمها..

فإذا ثبت هذا، وجد الإيمان بالله، وبالرسل، وبالسبعث، والحساب والجزاء والجنة والنار، مدخلاً إلى تلك العقول التي أقامت عليها المادة حجاً كثيفاً. وهنا ينكشف لها وجه الحق، فتبصر الطريق إلى الله الذي أضلها الهوى والشيطان عنه..

إن هذا الكتاب، الذي يطلع به الدكتور جادو على الناس، يعرض النفس حقيقة واقعة، يقيم عليها الشواهد من كتاب الله، ومن مقولات الفلاسفة اليونانيين، ومقولات الفلاسفة الإسلاميين حيث تلتقى تلك القمم الشاغحة من العقول الإنسانية، وتلك المدارك العالية من قادة الفكر الإنساني مع مقررات الدين بشأن النفس، وبأنها جوهر الإنسان الخالد، حيث تلتقى الخطاب من الله تعالى في موقف الجزاء: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، أَرْجَعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (سورة الفجر: ٢٧ - ٣٠).. ﴿الْيَوْمَ تَجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ (سورة غافر: ١٧).. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (سورة الشمس: ٧ - ١٠)..

* * *

هذا وقد نشأ عن الدراسات النفسية في الغرب، والاعتراف بها،
وبأنها جوهر الإنسان، أن خفّ ضغط المادية على العقول هناك.
وانفسح المجال لما وراء المادة. وكان من هذا ظهور تلك الظاهرة التي
أصبحت اليوم مستحوذة على جانب كبير من النشاط العلمي في أوروبا
 وأمريكا، وأعني بهذه الظاهرة ظاهرة المباحث الروحية وما يتبعها من
تحضير الأرواح، وتدرّس ذلك في كثير من الجامعات إلى جانب
العلوم التجريبية، كالطبيعة، والكيمياء وغيرها من طب، وهندسة..
وأياً ما ينتهي إليه البحث في عالم الروح، فهو كسب للدين،
ودعوة إلى الإيمان بالله، وما يتبع هذا الإيمان من إيمان برسول الله،
وملائكته، وكتبه، واليوم الآخر..

* * *

هذا والإسلام يؤاخى بين العلم والدين، ويرفع من شأن العلم
وأهله؛ لأن الدين الذي لا يقوم على علم هو دين هش، لا تمسك
به العقول، ولا تعظمّن إليه القلوب، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى
اللهَ من عباده العلماء﴾ (سورة فاطر: ٢٨) ويقول سبحانه: ﴿وتلك
الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلاّ العالمون﴾ (سورة
العنكبوت: ٤٣). ويقول تبارك اسمه: ﴿شهد الله أنه لا إله إلاّ هو
والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط﴾ (سورة آل عمران: ١٨)..
وليس العلم الذي يزكّيه الإسلام، ويرفع منازل أهله، مقصوراً

على علوم الدين، من تفسير، وحديث، وفقه، ونحوها، وإنما العلم في الإسلام هو العلم في أوسع دوائره، مما يحصله العلماء من سفر هذا الوجود، وما أودع فيه الخالق سبحانه من سنن، وما طوى فيه من أسرار.. فكل ما يضيف إلى العقل من معرفة، هو علم يدخل في حساب الدين، ويزيد المسلم صلة بربه، ويقينا بدينه..

* * *

وبعد، فإن لا أتحدث عن الكتاب، وحسي أن أقول إنه يعالج قضية النفس، ويقم الشواهد على وجودها، وحسي أن أقول إن مؤلف الكتاب، هو الأستاذ العالم المسلم الغيور: عبد العزيز جادو.. وأن هذا الكتاب هو سيف من سيوف الحق، في يد مجاهد من المجاهدين في سبيل الله.

فزيئاً من هذه السيوف - أيها الأخ الصديق - في وقت نحن في أمس الحاجة فيه إلى سيوف تحمي حيا الإسلام، وتدفع عن أهله عادية أعداء الله، وأعداء دين الله..

وفقك الله، وأعانك، وأمدك بروح من عنده.

الإسكندرية في رمضان ١٤٠٥ هـ - يونيو ١٩٨٥ م

مقدمة

درج الفلاسفة والعلماء الأقدمون من الإغريق والرومان والمسلمين، وفي أوروبا في القرون الوسطى والحديثة على اعتبار أن النفس الإنسانية والروح الإنسانية موضوع واحد. وأن الحديث في أحدها هو بالضرورة حديث في الآخر. وبدل على ذلك أن كلمة «بسيشييه» Psyché اللاتينية تشير إلى النفس والعقل والروح بمثلول واحد. ثم جاءت مدارس التحليل النفسي الحديثة بزعماء العالم النفساني القسوي سيجموند فرويد على أساس من أفكار جديدة تمامًا عن التسليم بالنفس أو بالعقل وإنكار الروح بمعنى الشعلة القدسية الخالدة في الإنسان؛ لأن فرويد وأتباعه لا يسلّمون بوجود عنصر قائم بذاته في الوعي الإنساني له أية صفة من صفات الدوام بعد تحلل المخ أو حتى أية صفة من صفات الاستقلال عن المخ قبل تحلله..

عن أن هذا الاتجاه وإن كان قد نجح في الكشف عن بعض أغوار النفس عن طريق أسلوب التحليل النفسي سرعان ما تبين قصوره عن تحليل أخطر ظواهر الحياة وعدم فاعليته في مواجهة أخطر أمراض النفس.

حقاً لقد نجح فرويد في اكتشاف العقل الباطن وهو اكتشاف جليل الأثر في تاريخ علم الإنسان. وحقاً لقد نجح في اكتشاف العقد أو المركبات النفسية، وهو اكتشاف بدوره جليل الخطر. لكنه فشل فشلاً تاماً في تعليل العقل الباطن أو في علاج العقد النفسية.. فما لا ريب فيه أنه حاول بسبب ارتباطه الوثيق بفلسفة مادية مترتبة عن الوجود، أن يعلل العقل الباطن بتعليلات سطحية تـسـرجع إلى اللحظات الأولى من عملية الولادة هرباً من محاولة التعليل بحياة سابقة للنفس أو الروح، وهو ما تؤمن به بعض الفلسفات العريقة وبعض الاعتقادات الشائعة في الشرق الأقصى.

ولكن.. هل كان بمقدور عالم غربي يعيش في القرن العشرين في زحمة الفلسفة المادية أن يعلن أنه اكتشف للنفس حياة سابقة؟.. ويقال مع ذلك أنه عالم علمي بالمعنى المستقر؟..

ولكن مما لا ريب فيه أن خلفاء فرويد كانوا أكثر منه تحسراً بكثير من الفلسفة المادية وأقرب منه بالتالي إلى حقائق الحياة. ويمكن أن نذكر في هذا الشأن أمثال وليم جيمس، وماكدوجال في أمريكا.. وبرجسون في فرنسا. وهانز بريش في ألمانيا، وأدلر في النمسا، ووليم براون وتشارلس بسرووس في إنجلترا، وكارل جوستاف يسانج في سويسرا.. فكل هؤلاء فلاسفة وعلماء نفس من أعلى طراز وكلهم سلموا بوجود العقل الباطن وبوجود العقد النفسية. لكنهم أصبحوا

من قوى الاتجاهات الروحية الواضحة التي تميز مدارسهم العلمية
تمييزًا كافيًا عن مدرسة سيجموند فرويد.

وهؤلاء الأفاضل هم رواد أعلام في علم الروح الحديث بمقدار
ما هم علماء نفس كبار..

وإن سألنا هذا النحو في موضوع هذا الكتاب.. لأنني أميل إلى
التسليم بأن علم النفس المادي قد انتهى إلى الأبد. وبأن هذه المدرسة
قد حلت محلها مدرسة أخرى يمكن أن توصف بأنها مدرسة علم
النفس الروحي التي لا تنكر قيمة كشف فرويد، ولكنها لا ترتبط
مطلقًا بفكرة مادية الحياة. ولا تسلّم مطلقًا بأن للنفس الإنسانية دورة
واحدة تبدأ بالولادة وتنتهي بالوفاة. أو على الأقل إن هذه المدارس -
وهي مدارس وضعية بالمعنى الحرفي للكلمة - لا نجد تعارضًا مطلقًا
بين كشف مدارس التحليل النفسي الحديثة والحقائق التي وصل إليها
العلماء الباحثون فيما وراء النفس أو فيما وراء الروح، وهي تلك التي
يطلق عليها وصف «حقائق العلم الروحي الحديث».

ومن أخطر حقائق علم الروح الحديث التسليم باستقلال العقل عن المخ،
ويدوام الحياة للعقل ولو بعد انفصاله عن المخ، والإدراك عن غير طريق
الحواس، وأثر العقل في المادة، والإلهام الواعي وغير الواعي الذي يميز
أرفع إنتاج الفلاسفة والعباقرة والشعراء الملهمين الكبار..

ولقد عالجت بعض هذه الموضوعات في كتابي «الروح والخلود بين العلم والفلسفة» وسأعالج بعض الموضوعات الأخرى في كتاب آخر إن شاء الله..

أسأل الله أن يوفقنا إلى الصواب.. وإلى ما يحب ويرضى.

المؤلف

الإنسان

لمعة تشعّ في كل كائن.. حياة تظهر في كل موجود.. وتسير في تطور الارتقاء مستمرة، لتبلغ الغرض الأسمى الذي هو حيازة العقل الراقى، والذاتية التي انطوى فيها العالم الأكبر لتتسجم مع نفخة الوجود الكلى، وترقى إلى الكمال الأعلى، وتفوز بالحياة الخالدة، وبالسعادة الحقة مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر..

قدرة عالية تفيض على ذرات السديم عناصر الحياة. وتمدها بما يستلزم نشوءها وارتقاءها، إلى أن تصير شمساً نيرة في الفضاء اللانهائى، في غضون الملايين من الأعوام..

فلا تزال تجرى لمستقر لها إلى أن تقذف من بركانها حمماً تدور حولها ولا يمضى عليها حين من الدهر، إلا وترى هذه الشمس وقد

أصبحت مركزاً لسيارات تسبح في أفلاكها، فتشكل منظومة شمسية لها نظام خاص..

فتخضع هذه السيارات للناموس الارتقائي، وتخفى جسراتها في حيمها تحت طيات هذه الطبقات التي بردت وتجمدت. فتنتهز الكهارب هذه الفرصة لتنشئ من تموجات الأثير أصول العناصر المختلفة لتبرز إلى الوجود حياة العالم المادي بأشكالها البديعة

وقد أخذت هذه العناصر بالسير إلى الكمال فولدت نواة الحياة العضوية الأولى «بروتوبلازم»^(١) Protoplasm. فابتدأت الحياة العضوية سيرها فتدرجت من البسيط إلى المركب. وترقت من الأدنى إلى الأعلى، إلى أن نشأت يدُ القدرة الإلهية الموجودَ الأسمى في أحسن تقويم. وجهازته بالعقل والإرادة والشعور..

وجعلته أهلاً لحمل الأمانة التي عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان..

ولم تهمل هذه القدرة شأن الإنسان بعد تحميله الأمانة بل تعهدته بالسير نحو الكمال، فدرجت من السذاجة الوحشية إلى الاجتماع والتدين. ومن الجهل إلى العلم والعرفة. فجعلته بذلك أرقى ما في العالم المنظور من المخلوقات..

(١) ويطلق عليها «الميرول». وهي المادة الحية الأساسية في الخلايا النباتية والحيوانية. وهي مادة زلالية تتكون منها خلية الأجسام العضوية.

قال القاضي الإمام أبو بكر بن العربي المالكي :

(ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان. فإن الله تعالى خلقه حيًا، عالمًا قادرًا مريدًا، متكلمًا سميعًا، بصيرًا، مدبرًا حكيمًا، كليًا. وهذه بعض صفات الرب جل وعلا. وعننا عبر بعض العلماء، ووقع البيان بقوله صلى الله عليه وسلم : «إن الله تعالى خلق آدم على صورته» يعني على صفاته التي قلنا ذكرها قال تعالى : ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ وهو اعتداله ونسوية أعضائه؛ لأنه خلق كل شيء منكبًا على وجهه، وخلقته هو سويًا مستويًا. وله لسان زلق ينطق به، ويد وأصابع يقبض بها، مزينا بالعقل، مؤدبًا بالأمر^(١)، مهذبًا بالتمييز^(٢)، مليد القامة يتناول مأكوله ومشروبه بيده^(٣).

ولقد زوده الله علاوة على ذلك بالعقل والإرادة، وبها أعلى همة إلى التخلق بالكمال الإلهي، ناشدًا الحقيقة الإلهية متحديًا بها، متوحدًا معها، ليحقق معنى وجوده، خليفة الله في وجوده..
﴿إن جاعل في الأرض خليفة﴾^(٤).

(١) جاء في تفسير القرطبي : «مؤدبًا للأمر».

(٢) جاء في تفسير القرطبي : «مهذبًا بالتمييز».

(٣) عن كتاب «حياة الحيوان» للشميري جزء أول ص ٧٢ وأيضًا «تفسير

القرطبي الجزء ٢٠ ص ١١٤.

(٤) سورة البقرة آية ٣٠ : ٢.

«خلق الله آدم على صورته، أو على صورة الرحمن»^(١).

«تخلقوا بأخلاق الله»^(٢).

وهذا يدلنا على أن الإنسان أحسن خلق الله باطنًا وظاهرًا، جمال هيئة، وديع تركيب: الرأس بما فيه، والصدر بما جمعه، والبطن بما حواه، والفرج وما طواه، واليدين وما بطشتاه، والرجلان وما احتملتاه.

وافتح ابن بختيشوع الطيب كتابه في الحيوان بالإنسان قائلًا: «إنه أعدل الحيوان مزاجًا، وأكمله أفعالًا، وألطفه حسًا، وأنفسه رأيا، فهو كالملك للسلط القاهر لآثر الخليفة والأمر لها.. وذلك بما وهب الله تعالى له من العقل السدي به يميز على كل الحيوان البهيمي، فهو بالحقيقة ملك العالم؛ ولذلك سماه قوم من الأقدمين العالم الأصغر..»^(٣).

بل إن الإنسان قد انطوى في ذاته العالم العلوى والسفلى. وجمع - رغم صغر ما يشغله من هذا الكون - جميع ما في الكون من تفاعلات وعناصر، فهو كما يقول الإمام ابن العربي:

(١) حديث شريف.

(٢) حديث شريف.

(٣) عن كتاب «حياة الحيوان» للدميري، جزء أول ص ٧٤.

وتزعم أنك جرمٌ صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

« فالجسم كالعرش، والنفس كالكرسي، والقلب كالبيت المعمور،
واللذاتف القلبية كالجنان، والقوى الروحانية كالملائكة، والعينان
والأذنان والمنخران والسبيلان والذائقة والشامة، واللامسة والناطقة
والعاقلة كالكوكب السبعة السيارة. . وكما أن رئاسة الكواكب
بالشمس والقمر وكل منها يستمد من الآخر، فكذلك رئاسة قواك
بالتصور والعقل. وكما جعل الله في السنة وفي العالم الكبير ثلاثمائة
وستين يوماً، فكذا جعل فيك عددها من الفاصل. وكما جعل في
العالم الكبير أرضاً وجبالاً ومعادن ومخاراً وأنهاراً وجداول وسواقي وطيناً
ونباتاً وتراباً ومفاوز وخراباً وعمراً ورياحاً ورموداً وصواعق وقفراً
ونهاراً وليلاً، جعل فيك نوماً ويقظة وسنين معدودة لعمرك وولادة
وصبا وشباباً وكهولة وشيخوخة وموتاً جعل جسديك كالارض،
وعظامك كالجبال، وعظمك كالمعادن، وجوفك كالبحسار، وأمعائك
كالأنهار، وعروقك كالجداول والسواقي، وشحمك كالطين، وشعرك
كالنبات، ومنبته كالتراب، وظهرك كالمساوز، وجشك كالخسراب،
وانسك كالعمران، وتنفسك كالرياح، وكلامك كالسرعد، وصوتك
كالصواعق، وبكاءك كالطرر، وسرورك كالنهار، وحزنك كالليل،
ونومك كالموت، ويقظتك كالخياة، وسنى أهلك كالبلدان، وولادتك
كابتداء سفرك، وصباك كالريبع، وشبيبتك كالصيف، وكهولتك

كالخريف، وشيخوختك كالشتاء، وموتك كإنقضاء أيام سفرك... (١)

* * *

ولقد عرّف أبو حيان التوحيدي الإنسان بأنه : « هو الشيء المنظوم بتدبير الطبيعة للمادة المخصوصة بالصورة البشرية، المؤيد بنور العقل من قبل الإله؛ وهذا وصف يأتي على القبول الشائع عن الأولين أنه حتى ناطق مائت، حتى من قبل الحس والحركة، ناطق من قبل الفكر والتمييز، مائت من قبل السيلان والاستحالة... فمن حيث هو حتى شريك الحيوان الذي هو جنسه؛ ومن حيث هو مائت هو شريك ما يتبدل ويتحلل؛ ومن حيث هو ناطق هو إنسان عاقل حصيف؛ ومن حيث يبلغ إلى مشابهة الملك بقوة الاختيار البشري، والنور الإلهي، أعني ينعت في حياته هذه التي وهبت له بدءاً، بصحة العقيدة، وصلاح العمل، وصدق القول - هو ملك. فإن لم يكن ملكاً، فهو جامع لصفاته، ومالك لحليته. ولما كان جنسه مشتملاً على التفاوت الطويل العريض، كان نوعه مشتملاً على التفاوت الطويل العريض. ومن كان نوعه كذلك كانت آحاده كذلك. وكما أن الجنس يرتق إلى نوع كامل، كذلك النوع يرتق إلى

(١) عن كتاب «إزالة اللبس عن حقيقة النفس» للسيد إدريس بن الشريف الحسني العلوي. مخطوطة مطبوعة طبعها حجرية بفاس سنة ١٣٢٢ هـ.

شخص كامل»^(١).

وهذه نظرة الأولين والآخرين من الفلاسفة والحكماء.. هو أن الإنسان سيد الطبيعة وكيالها، وهو بما فيه من شوق للحقيقة وتطور للكمال سيعطى يوماً ما صورة أروع لكمالته في جمال جسده، وقد أعطى.. وفي كمال قدرته وما يزال يعطى.. وفي إحاطة عقله وهو في طريقه لذلك، مما يشره علماء السطبيعة باسم الإنسان «السورمان»، أو الإنسان الكامل الأمثل كما تصوّره الفيلسوف «نيتشه» Nitchie بصورة عهد لعصر المدينة الفاضلة.

فهل يعقل بعد هذا الرق والتكامل الذي اقتضت الحكمة الإلهية العالية أن تتعاقب عليه ملايين السنين والأحقاب في تكوين حقيقة الإنسان وعقله الذي هو الغرض الأسمى من رقى المخلوقات أن تجعله هباءً مشوراً تذرّوه الريح، كأن خالقه يلهو به ويعبث. ومتى وصل إلى أعظم غاية يمكن الوصول إليها في هذه الدنيا يطرحه من يده كأنه من سقط المتاع؟..

كلّا، ثم كلّا.. لا يقبل ذلك من له أدنى إدراك صحيح.. لأننا إذا أقررنا بوجود النظام في الكائنات الذي سَمَّ به العلم الطبيعي يلزمنا أن نقرّ بوجود المنظم الحكيم.. وإذا سلمنا بوجوده استحال

(١) عن كتاب «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، الجزء الثالث ص ١١٢ - ١١٣. لجنة التأليف والنشر ١٩٤٤.

علينا أن نتصور أن هذا المتظم يبيد اسمى مخلوقاته عندما يصل إلى
الدرجة العليا من الكمال..

إذن فالعقل السليم لا يقبل فناء حقيقة الإنسان وذاتيته.
ولكن..

ما هو الإنسان؟.. وما حقيقته؟.. وماذا يكون ذلك المخلوق
الذي خلقه الله على صورته؟.. وجعله خليفة في الأرض؟ وفضله
على الملائكة، وأمرهم أن يسجدوا له فسجدوا..

﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ
مسنون، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين.
فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾^(١).

من يكون ذلك المخلوق الذي أكرمه ربه ونعمه. فنظر في الكون
واتسعت بصيرته إلى إدراك المعاني والصور، بما أودع فيه من سر
العقل، وهو سر الوجود؟..
إن الله تعالى يقول :

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في
قرار مكين﴾^(٢).. ويفسر هذه الآية قوله تعالى : ﴿والله أنبئكم من
الأرض نباتاً﴾^(٣)..

(١) سورة الحجر الآيات ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ : ١٥.

(٢) سورة المؤمنون الآيات ١٢ و ١٣ : ٢٣.

(٣) سورة نوح آية ١٧ : ٧١.

فالإِنسان إذن من سلالة من طين؟ . نعم . . أليس يأكل النبات، ويتغذى بالحيوانات . . وهل النبات إلا من الأرض يمتصّ غذاءه من الطين بواسطة الجذور فتحوّل التراب إلى نباتات، والنبات يأكله الحيوان. ثم النبات والحيوان يتغذى بهما الإنسان. فهو من سلالة من طين. ثم هذا الغذاء بعد أن يتحول في بدن الإنسان إلى دم ولحم وعظام يتحول منه النطفة. فإذا نظر الإنسان نظرة محقق رأى أنه يتغذى من الطين. ثم إذا فكر ثم خلق وجد جواباً على هذا أنه: ﴿خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب﴾^(١).

هذا هو الإنسان الذي نراه . . هذا هو تكوينه وخلقته . . أوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو فيما بين ذلك حامل العذرة . . نراه يتغذى كما يتغذى الحيوان . . وينمو كما ينمو النبات . . نراه كائناً يمشى على قدمين لا يختلف كثيراً عن تلك التي تحبو على أربع . .

إذن فالإنسان يطلق على معينين :

أحدهما : محسوس مشاهد يراه البصر، ويحسّه اللمس، وهو قابل للفناء، ميت بطبعه . .

والثاني : حيّ بالذات، بل هو عين الحياة . .

الأول محسوس بالحواس الخمس . .

(١) سورة الطارق الآيتان : ٦ ، ٧ : ٨٦ .

والثاني لا يدرك إلا بالعقل ..

وسمى الأول إنساناً من باب المجاز كما يُسمى ضوء الشمس شمساً. فكما أن ضوء الشمس يستدل به عليها، كذلك الإنسان الظاهر ظل وشبح للإنسان الحقيقي؛ لأنه مظهر أفعاله، ومحل تصرفاته.

والإنسان الحقيقي إذا خلا بنفسه، وتجرد عن النزوع إلى عالم الحسّ وخلع بدنه بعزله عن إدراكه، رأى نفسه عالماً معنوياً حياً. عالماً بذاته لا يحتاج في إدراكها إلى غيره.

والإنسان الحقيقي هو الذي سماه الله بالنفس في قوله تعالى:

﴿ونفس وما سواها. فآلمها فجورها وتقواها﴾^(١).

وهو الإنسان المشار إليه في الآية الكريمة:

﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾^(٢).

فأشار بأحسن تقويم إلى الفطرة الطاهرة القابلة للعلوم والحكمة، والمقرّة بالربوبية ..

والإنسان الحقيقي إنما هو بيت شريف، وهيكل منيف .. كان يسميه هرمس الحكيم: بيت الله ..

(١) سورة الشمس الايتان ٧، ٨ : ٩١.

(٢) سورة التين آية ٤ : ٩٥.

ويسميه سقراط: الهيكل المقدس.

والإنسان الحقيقي يملك هيكلًا، أو محرابًا، أو «قدس الأقداس» ..

إنه ذاتية، سرّ، حياة باطنية، ذات عميقة، عالم أصغر: ويقول السيد المسيح: «أنتم هيكل النور الإلهي»

وهذا الإنسان الحقيقي هو الذي قال عنه أبو الفتح البستي في نونيته:

ياخادم الجسم كم تسمى لخدمته أنطلب الريح في مافيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

كما إن الإنسان ليس إنسانًا بصورته، فإن الصورة يشترك فيها الإنسان والحيوان. وكم من غبي في صورة جميلة، وكم من منحط في صورة رائعة. وفي ذلك ورد الحديث: «إيساكم وخضراء الدمن». قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله. قال: المرأة السوء ذات الوجه الحسن». وكم من قبيح الصورة كبير القلب والعقل.. ولقد كان الجاحظ وسقراط مثاليين على ذلك.. ولقد قيل في ذلك:

مالرء إلا قلبه ولسانه وسواهما الحيوان فيه شريك
وذلك مصداق لقول الرسول الكريم «الرء بأصغريه: قلبه ولسانه».

تركيب الإنسان :

الإنسان كما نراه في تكوينه وخلقه يتركب من : جسم ، ونفس ،

وروح .

أما الجسم فهو عبارة عن الهيكل العظمي المكسو لحماً وشحمًا كما نراه بالعين المجردة. ويمكن وصفه بهيكل أو قالب يقام لإنشاء بناء مطلوب. ومتى تم العمل أزيل الهيكل وبقي البناء. ويمكن أن نعتبره وعاءً ماديًا نسكن فيه إلى حين. وحالما يعتري هذا الجسد المادى أى عطب ويصبح غير قابل للسكنى فنحن نخرج منه ونتركه جثة هامدة مظلمة. وهذا ما يسمونه بالموت.

وأما النفس فهى وإن كانت سرًا غامضًا لا يصل إلى إدراك كتبها العقل الإنسانى، إلا أن مظاهرها وآثارها تبدو جلية في القوى التى تسيّر جسمنا وتدير شئون حياتنا الإنسانية من : التفكير، والإرادة، والوجدان.

فإذا قلت مثلاً : «إن ذاهب إلى البيت» فالذاهب في الحقيقة هو نفسك وذاتيتك لا جسمك وبدنك. والنفس هى التى تحمل البدن وتسوقه إلى ذلك المكان لا عكسه.

والنفس هى الشئ الذى يشير إليه كل واحد بقوله : «أنا». وهى الجوهر اللطيف الحامل لقوة الحياة، والحس، والحركة والإرادة.

وهي مجردة عن المادة، قائمة بنفسها، غير متحيزة، مشتبكة بالبدن
اشتباك الماء بالعود الأخضر، ومتعلقة به للتدبير والتحريك.

فنعلم من هذا أن البدن ككساء للنفس تابع وخاضع لامرها..

كما أن الثوب كساء للبدن تابع ومتحرك به. فإذا كانت آثار مظاهر

الشعور محسوسة وظاهرة في حياتنا، تلك المظاهر التي لولاها لما تكون

الجسم وحتى الهيكل الإنساني، فلا بدّ لهذه المظاهر من شيء تصدر

عنه؛ لأن الجسم لا يمكن أن يولد تلك القوى لكونه تابعاً لها،

وجوده متوقف عليها. كما أن الأسلاك الكهربائية لا تولد الكهرباء

بل تحملها وتبرزها عندما يوصل السلك بالتيار الكهربائي.

والنفس هي الحقيقة الذاتية المقيضة على الجسم الإنسان ودماغه

وأعصابه وحواسه قوى الحياة من النشوء والنمو والتطور. والقائمة بتدبير

نظام البدن بالتركيب والتحليل. فأجسامنا، ومراكز قوانا بمقتضى

الناموس الحيوى في تحلل وتركب مستمر وتجدد دائم. وليست قوّة

الناموس الحيوى وفاعليته مستمدة من نفسه أو من نظام البدن، بل

إن الناموس الحيوى يستمد قوّته من النفس؛ لأن النظام لا يكون

بدون منظم، والحركة لا تحصل بلا محرك. وقد نرى الشيء يتحرك

بنفسه كما في الساعة، ولكن بأذن تأمل يتبين لنا أن الحركة ليست

من نفسها، بل هي نتيجة اختراع المخترع وتنظيمه.

كما أن أظهر الآثار التي يُرى فيها جلال ذات الحق، وكمال

صفاته، إنما هو معرفة النفس كما قال تعالى :

﴿ستريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾^(١).

﴿وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾^(٢).

والحكمة التي استقر عليها كل المفكرين قديمًا وحديثًا هي معرفة النفس على أنها الطريق لمعرفة أسرار الوجود الإلهي. فكلمة سقراط الجامعة: «اعرف نفسك» هي في جلال إحاطتها عند رسول الإسلام القائل: «من عرف نفسه فقد عرف ربه».

فالنفس هي التي تبنى، وتنظم، وتسير، وتنسج هيكل الجسم، لأنها مصدر الناموس الحيوي في الإنسان.

ويفاعلية هذا الناموس تلتئم الجروح، وتؤسى الكلوم، وتتجدد الخلايا في كل أجزاء الجسم الإنسان، ويُعاد نمو الأنسجة البشرية.. ومع هذا التجدد لا يضيع من ذكرياتنا أي شيء. فلو طسراً على أذهاننا النسيان ونسينا بعض معلوماتنا فإن ذلك لا يزول ولا يذهب أدراج الرياح كأجزاء الجسم، بل يكون منقوشًا ومثبتًا في خزانة النفس التي نعبر عنها اليوم في علم النفس (بالعقل الباطن). والعقل الباطن لا يحفظ ما تعلمناه في حياتنا الحاضرة فقط، بل يحفظ لنا

(١) سورة فصلت آية ٥٣ : ٤١.

(٢) سورة الذاريات الآيتان ٢٠، ٢١ : ٥١.

كثيراً من صور حياة أجدادنا الذين عاشوا قبل آلاف من السنين^(١).
فأكثر تلك الصور الغريبة، والرموز العجيبة، التي نترأى لنا في
أحلامنا إن هي إلا موروثات السلف المحفوظة في خزانة عقلنا
الباطن.

إذن فقد تقرر لدينا بواسطة العلم الطبيعي أن أجسامنا بسرمتها
تتجدد حتى خلايا أدمغتنا. فلو كان التفكير والتذكر من خصائص
تركيب المادة وفعاليتها للزم أن لا يبقى أثر من معلوماتنا وذاكراتنا
السابقة؛ فبقاء الذكريات يدلّ على أنّ فينا ذاتية ثابتة غير منظورة
لا يعترها التبديل والتحويل، ولا تمسّها أيدي التركيب والتحليل.

وهذه الذاتية هي حقيقة الإنسان ونفسه الخالدة. والله در

القائل :

كامل حقيقتك التي لم تكمل	والجسم ضعه في الخضيض الأسفل
اتكلم الفسان وتترك باقيا	هملأ وأنت بأمره لم تكفل
الجسم للنفس النفيسة آلة	ما لم تكملها به لم تكمل

(١) عن كتاب «العقل منبع الحكمة» للمؤلف، ارجع أيضاً إلى كتاب
«الأحلام والرؤى» للمؤلف.

آراء الفلاسفة في النفس

١ - فلاسفة اليونان

رأى سقراط:

يرى سقراط^(١) أن النفس جوهر أو كائن روحي له خصائصه الذاتية. وأنه إذا أهمل غشيتها طبقة من صدا الجهل والآراء الفاسدة

(١) سقراط: (٤٧٠ - ٤٠٠ ق. م.) من أشهر فلاسفة الإغريق، ومؤسس فلسفة الأخلاق. ولد في مدينة أثينا وكان أبوه «سفرونسك» نقاشاً وأمه «فيناريت» مولدة (داية). اتخذ في بدء أمره مهنة أبيه ولكنه اتبع فيما بعد رأى صديقه المثرى «كريتون» الذي ابتاع له مؤلفات «انكسفوراس» فاعتنق الفلسفة وصار معلماً فشرع في تدريس الفلسفة في محلات أثينا العمومية وساتينها. وجاهد في سبيل الحق حتى لقي مصرعه على أيدي حاسديه من أنصار الباطل.

ومنهجه في البحث مشهور، والحديث التالي يعطينا صورة منه، وقد جرى بينه وبين «أرسطوديموس» الذي كان ينكر الإله، ومنه نستبين أيضاً بعض أفكاره. قال سقراط: أفي الناس من يعجبك براعته في البضائع؟

فيفقد طبيعته. غير أنه يمكن إزاحة الصداً ومحو غياهب الجهل إذا عمد

= فقال : نعم، وسمى من الشعراء والمصورين ممن كان يعمده أربع من غيره.
فقال سقراط : أيها عندك أرفع شأنًا؟ أم يصنع التمثيل العارية عن الحركة
والعقل، أم من يصور الأشباح الحية المتحركة؟
فقال : من يصنع الصور الحية، اللهم إلا إذا كانت تلك الصور من عهد
للصافدة والاتفاق، لا من عمل العقل.

قال سقراط : إذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها، وأشياء أخرى بينة المقصد
والمنفعة فما قولك في تلك الأشياء؟ وما هي التي عندك من فعل العقل، وما هي
التي عندك من فعل الاتفاق؟

قال : لا شك أن ما ظهر تصده ومنفعته من فعل العقل.
قال سقراط : أولست ترى أن صانع الإنسان في أول نشأته جعل له آلات
الحس لما في تلك الآلات من المنفعة الظاهرة، فأعطاه البصر والأذنين ليصير ويسمع
ما يكون لحيثه صادقًا؟ وما فائدة الروائح لو لم تكن لنا الحياشم؟ وكيف ندرك
الطعوم، ونفرق بين المر والحلو والمز، لو لم يكن لنا لسان تذوق به؟ وإن بهرنا
معرض للآفات. أو لست ترى كيف اعتمدت القدرة الإلهية بذلك؟ فجعلت الأجزاء
كالأبواب تمنع ما يصيب البصر، وجعلت الأهداب كالمناخل لتقيها من ضرر
الرياح. وما قولك في آلة السمع، وهي تقبل جميع الأصوات ولا تفتل أبدًا؟ أما
رأيت الحيوانات، كيف رتبت أسنانها للقعدة، وأعدت لقطع الأشياء فتلقبها إلى
الأضراس فتدقها دقًا؟.. فإذا تعلمت في ترتيب ذلك، أيمكنك أن تشك، هل هي
من فعل الاتفاق أم من فعل العقل؟

قال أرسطو ديموس : نعم إذا تفكرنا في ذلك، لا نشك في أنها من فعل صانع
حكيم كثير العناية بمصنوعاته. من غطوظات وستلنا.

المرء إلى التأمل والتفكير في نفسه، وعندئذ تنكشف له الحقيقة^(١)
 ولذلك قد اتخذ سقراط لنفسه شعاراً تلك الجملة التي كانت
 مكتوبة في معبد (دلفي) وهي «اعرف نفسك بنفسك»، ذلك لأنه
 كان يعتقد أن هذه الجملة لم تدون عبثاً، ولكن للحكمة، فإن معرفة
 الإنسان لنفسه ليس معناها معرفته لجسده، بل لذلك العنصر الإلهي
 الذي يوجد في أعماق وجوده. إن حقيقة الإنسان هي نفسه. وهذه
 الأخيرة تحتوي على العقل الذي يطلق عليه سقراط أحياناً «ظل
 الله». ومعنى ذلك أن الإنسان إذا غمض نفسه رأى فيها الإله، أي
 اهتدى إليه. وتلك هي المعرفة الأولى التي يجب تحصيلها قبل معرفة
 سواها، لأنها هي التي تتيح للمرء معرفة نفسه والوقوف على حقائق
 الأشياء الأخرى^(٢).

وأراد سقراط أن يقرب حقيقة النفس إلى أذهاننا، فقال: إنها
 تشبه الإله إلى حد كبير. فكما أن الإله قوة خفية لا تقع تحت
 حسنا، وتعجز عقولنا عن إدراك كنهها، مع أنها ترى وتسمع وتحيط
 بكل شيء علماً وقدرة وعناية، كذلك النفس فإنها وإن خفيت على
 حسنا فإنها توجد في الجسم بأسره وتقوم بتدبيره والعناية به.

(١) عن كتاب «دراسات في الفلسفة الإسلامية» د. محمود قاسم ص ٦.

(٢) عن كتاب «في النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام» للدكتور محمود

وكان سقراط يرى أيضاً أن الإله خلق الإنسان في أحسن تقويمه ولكنه عنى بنفسه أكثر من عنايته بجسمه. والدليل على ذلك أن النفوس البشرية أسمى النفوس وأعلاها مرتبة. أليست هي التي تستطيع وحدها أن ترقى إلى معرفة الإله؟.. أوليت أكثر قدرة من نفوس الحيوان على اتقاء الجوع والعطش والحر والبرد؟.. وفيما عدا ذلك فإنها تستطيع اتقاء المرض بالعلاج وتحتفظ في ذاكرتها بكل ما تحسن وتذكر^(١)..

رأى أرسطو:

عرّف أرسطو^(٢) النفس بأنها التدبير الفعلي لجسم عضوي. ثم قال: إن النفس في الأجسام العضوية هي واحدة ثلاثاً أصول. فهي السبب المحرك، والغاية، والماهية الإدراكية للأجسام ذوات النفوس ثم يقول إن الجزء الحسي للنفس، مادة واستعداد بالنسبة للعقل، وهو ماهية وتميز بالنسبة للجسم.

(١) عن كتاب «في النفس وعقل» للدكتور محمود قاسم ص ٢٨.

(٢) أرسطو: (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م.) - أعظم فلاسفة اليونان الأقدمين. ولد في بلدة «ستاجير» من بلاد مقدونيا. رحل إلى أثينا وتلمذ على «أفلاطون» ولازمه. ويلقب بـ «المعلم الأول» لأنه أول من رتب للنطق ونظمه. ولؤلؤة أهمية كبرى وتعتبر كدائرة معارف عند العلماء وقد ترجم إلى العربية من كتبه: كتاب «الأخلاق» وكتاب «الكون والفساد» و«السياسة» ترجمها الأستاذ الكبير «أحمد لطف السيد» وترجم له للرحوم الدكتور أحمد فؤاد الأهوان كتاب «النفس».

والإنسان - عند أرسطو - ككل الموجودات، مركب من مادة ومن صورة؛ فالجسم هو المادة، والنفس عنده هي الصورة التي يتشكل بها الجسم ويحيا؛ ولذلك لا تنفصل عن الجسم لأنها قوّة الفعّالة. وهي من عنصر خامس غير العناصر الأربعة، غير فاسد يسمى بـ «الأثير» ويعبر عنه بالجوهر الإلهي، فهو لا يقبل أى تأثير أو تغيير أو زوال..

والنفوس ثلاثة: نفس نباتية وهي مادة الحياة، ونفس إحساسية وما يتعلق بها من إدراك، وتذكر، وتخيل، وشهوات، وأميال غريزية، إلخ.. وتكون مشتركة بين الحيوان والإنسان. ونفس مفكرة عاقلة، وهي خاصة بالإنسان ومصدر الأفعال العقلية.

فالنفس الإحساسية الحيوانية لها القوّة النباتية الحيوية.

والنفس الناطقة العاقلة تحتوى على القوى الثلاث النباتية الحيوية، والإحساسية الحيوانية، والعاقلة المفكرة. وبذلك تم وحدة المركب الإنسانى.

«ولقد بنى أرسطو تعريفه للنفس على إحدى نظرياته المعروفة في الطبيعة، ونعنى بها نظريته الخاصة بالترقية بين المادة والصورة. وقد ضرب لنا أرسطو لذلك مثلاً فقال: إن الرخام يعدّ مادة للتمثال، والخشب مادة للمقعد. فإنه من الممكن أن يصبح الرخام تمثالاً، كما يمكن أن يصير شيئاً آخر. كذلك الخشب، فإنه قد يتقلب مقعداً أو

مائدة. ولما كانت المادة أمراً نسبياً بالمعنى السابق لم يكن بدُّ حينئذٍ من وجود عنصر آخر يحددها بعض الشيء، فيجعلها كائناً له صفاته الخاصة. وهذا العنصر هو ما يطلق عليه أرسطو اسم الصورة. فالصورة لديه إذن هي التي تخلع على المائدة كياناً خاصاً، أي هي التي تجعلها ذاتاً محددة الأوضاع متميزة عن غيرها. ومن ثم فإذا عدنا إلى مثال التمثال وجدنا أن هذا الأخير لم يصبح شيئاً محددًا ثابتًا قائمًا بذاته إلا لهذا السبب، وهو أنه يتألف من مادة وصورة. أما المادة فهي الحجر أو الرخام. وأما الصورة فهي الرسم أو الشكل الذي فكر فيه الصانع ثم خلعه على قطعة الرخام أو الحجر حتى أضحت ذات وجود خاص بها. وحينئذٍ فلا ريب اليقنة في أن الصورة هنا كمال للمادة. ويتبين لنا ذلك من المثال السابق. فإن هناك فرقاً في الوجود بين قطعة الرخام قبل نحتها وبعدها؛ إذ كانت عفاً فأصبحت معبرة. ومن البديهي أنها تعبر في هذه الحال الأخيرة عن وجود أسمى وأرق منه في الحال الأولى. وهذا هو معنى الكمال هنا^(١).



أما فيثاغورس^(٢) فيقول إن النفس جوهر مادي لطيف هبط من

(١) عن كتاب «في النفس والعقل» للدكتور محمود قاسم ص ٦٥ و٦٦.

(٢) فيثاغورس: قيل إنه ولد في الجيل السادس قبل المسيح ولم يعرف بالتنقيح سنة ولادته التي كانت في جزيرة «سالموس» بالقرب من شاطئ أفسس على بحر إيجه. ويقال أنه ولد حوالي عام ٥٨٢ وتوفي عام ٥٠٧ ق.م.

الأجرام السماوية. وأن هذه الجواهر المادية الروحانية في آن واحد تطرقت إلى الأجسام فأحييتا.

وتقول المدرسة الفيثاغورية إن النفوس أجزاء من الشمس. وتوجد شياطين بين الآلهة والناس، وهي التي تسبب لهؤلاء الأحلام وغيرها من الهواجس.

وإلى جانب ذلك نجد الفيلسوف الإغريقي القديم «هرقليطس»^(١) يقول: «إن النفس أو الروح تشبه جمره موقدة انفصلت من النار الأولى التي هي أصل الكون، ثم دخلت إلى الجسم فأكسبته الحياة.. وما دامت هذه الجمره موقدة بقى الجسم حياً سليماً. وإذا دبَّ إليها الضعف حدث المرض، وإذا لحدت جملته حدث الموت».

كذلك ذهب «ديموقريطس»^(٢) صاحب مذهب الذرة في العصر القديم إلى أن النفس مكونة من مجموعة من ذرات روحية سريعة الحركة كالتي تشاهد في شعاع الشمس المنبثق من كوة إلى داخل غرفة مظلمة. وإنما متى تحللت أجزاءها حدث المرض، وإذا تفرقت جاء الموت.

(١) هرقليطس: (٥٣٥ - ٤٧٥ ق.م.) ولد في «إفسوس» إحدى مدن آسيا الصغرى. قيل إنه أول متشائم يسوء الظن بالحوادث فلم يكن يرى إلا بآكياً.

(٢) ديموقريطس: (٦٢٠ - ٤٤٠ ق.م) اشتهر باسم «الطروب» لأنه ما كان يرى إلا ضاحكاً على نقيض «هرقليطس» المتشائم الباكى.

والرأى عند الرواقيين الأولين^(١) أن نفس الإنسان من الله، فهي من النفس الواحدة اللاهوتية. وأن النفس هي التنفس الحار الذي يقوم الجسم ويصوره. وأن النفوس مادية ككل الأشياء. وأن جميع الموجودات الخاصة مركبة كالجواهر من عنصر منفعل عديم الحركة ومن أصل فعال حي. فهذا الأصل يجمع الجزئيات الجهادية ببعضها ويجعلها متماسكة، وهو في النبات المادة النطفية التي تنمى البذر وتخرجه عضوياً حياً مطابقاً لنوعه. وهو في الحيوان النفس الحساسة الراغبة وفي الإنسان يصير ذلك الأصل عقلاً عالماً بذاته ومتضمناً أيضاً تلك الخواص الموجودة في الجهاد والنبات والحيوان ويسدعى حيثئذ الآنية.

ويكون العقل عارفاً وفاعلاً.

ومادة المعرفة الإحساس حيث تتأثر النفس بالأشياء الخارجية فتتنقش فيها صورها وأشكالها. فيتمثلها العقل ويستحضرها في الخيلة.

(١) المدرسة الرواقية من المدارس التي تذهب إلى أن العقل الإلهي هو المنظم لجميع الموجودات ومسيرها. وغرضها هو سعادة الإنسان في الحياة الدنيا. والسعادة في نظر هذه المدرسة، إنما هي في شيء داخل أمره بيدنا، ويرجع إلينا وحدنا، ولا يستطيع أحد كائناً من كان أن يسلبنا إياه: ذلك هو اطعنتسان النفس والاستقلال عن الغير. وقام بتأسيس هذه المدرسة «زينون» (٣٤٠ - ٢٦٣ ق.م) عام ٣٠٠ تقريباً في رواق بوسيل الذي كانت تحفظ فيه التحف بأثينا. ولذلك أطلق على هذا الفيلسوف وعلى تابعيه «الرواقيون».

غير أن بعض تلك الصور تنطبع معها حقيقة ذواتها وتدعى الأشكال المفهومة. وتقاس حقيقتها بقوتها أو بمفعولها. والعقل يستخلص من جملة أشكال مفهومة رأياً عاماً يستبصر به المستقبل ثم تنشأ المعرفة من ترتيب الآراء العامة.

فبينما يقول أرسطو بثلاثة قوى: إحساسية، وفكرية، وإرادية. ويذهب الرواقيون إلى القول بأصل واحد في الإنسان وهو العقل مصدر الفعل والإدراك والحياة. ومع أن مظاهره متعددة ومختلفة فهو يجتهد دائماً في إرجاع تلك الظواهر إلى طبيعة واحدة.

رأى أفلاطون في النفس:

أما رأى أفلاطون^(١) في النفس، فيتلخص في أنه يعتقد أنها

(١) أفلاطون: (٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م) من أشهر فلاسفة اليونان الذين تعلموا على سقراط. وهو من أسرة ثرية إذ أن أباه «أريستون» من نسل «قندروس» آخر ملوك أثينا القدماء. وكانت أمه «بيريسكون» من نسل «صولون الحكيم». وكان يطلق عليه أفلاطون الإلهي، ذلك لأن الروحانية تحتل من فلسفته المركز الرئيسي. ونظريته في «الثلث» وعلى رأسها «مثال الخير» مشهورة. وهي تقول إن النفوس الخالة في الأبدان وجدت قبل وجود هذه الأبدان في عالم سماوي اسمه «عالم الثلث» أو «عالم الحقيقة»، وكانت هناك تترك للعاني الكلية التي لا علاقة لها بالمادة. ثم أهبطت إلى العالم الأرضي وحلت في أبدانها لكي تترك الجزئيات المحسوسة في عالم المادة بواسطة قوى البدن الحسية.

جوهر روحى مستقل عن الجسم . وأن الجسم ليس سوى أداة تستخدمها النفس أو الروح، كما كان يقول سقراط. وإذن فأفلاطون يبدأ حيث انتهى أستاذه سقراط. وهو يفسر لنا الصلة بين النفس والجسم بالصلة بين الرّيان والسفينة. فالريّان مستقل بذاته وليست السفينة جزءاً من حقيقته. وهو يقوم بتدبيرها وتسييرها وحراستها وسط العواصف والأنواء. كذلك الأمر بالنسبة إلى النفس التى تحلّى في البدن وتدبره، وتعنى بأمره وتوجيهه الوجهة السليمة. أما إذا استعصى عليها أمر فإنها تغرق معه. ؟

وإلى جانب ذلك يقرر لنا أفلاطون أن النفس وسط بين عالمين : عالم علوى، وعالم سفلى. أى عالم المثل، وعالم الحس؛ ولذا فإنها تجمع بين خصائص هذين العالمين من حيث إنها كانت واحدة في العالم الأوّل، فإذا هبطت إلى الأرض مسخت وشوهت، وانقسمت إلى عدة أقسام.

وفي المقالة الخامسة من كتاب «النواميس» يعرف أفلاطون النفس بأنها قوّة تتحرك بذاتها، وتحرك المادة. فيقول من ناحية : إن ما يتحرك بذاته فهو خالد، من حيث إنه لا يوجد فيه ولا فى غيره . ما يقف حركته؛ ومن ناحية أخرى : إذا كانت النفوس علة الحركات الطبيعية فهى باقية، إذ لو كانت تنتهى لانتهدت الطبيعة أيضاً. فالنفس لا تموت فهى خالدة كالمثل ذاتها..

ويقول أيضاً : « إن محب الحكمة دائم النزوع إلى الوجود، معرضاً عن الأفراد والمظاهر، ساعياً في البحث عن الماهيات العقلية حتى يتصل جوهره العقلي بما في الأشياء من الجواهر المعقولة فيحصل الاتحاد لما بينهما من المشاكلة والمجانسة فتتولد من اتصافها المعرفة واليقين. فما العلم في الواقع إلا تذكر النفس حالتها السابقة التي كانت عليها قبل الوجود البشري. وما قد تشاهده في تلك الحياة السابقة أشبه الأشياء بالولادة. والنفس تبرز ما كان فيها كامناً وفي جوهرها باطناً».

وقسم أفلاطون القوى النفسية إلى ثلاث قوى :

الأولى : قوة شريرة منحطة، وهي ما يسمى باسم القوة الشهوية أو البهيمية، التي تصدر عن الإحساسات، والتي يسودها عنصر اللذة والالم بالمعنى الحسي الخالص. وهذه القوة تنشأ في النفس من اتحادها بالجسم، وهي أساس الرأي أي المعرفة التبعية للأشياء الحسية، وأساس المحبة الأرضية التي تربط النفس بالمتاع الدنيوي السطحي، وهذه القوة مقرها البطن.

والثانية : قوة الكبرياء أو توكيد النفس أو السيطرة أو محاولة السيادة على الآخرين، وهي ما يسمى باسم القوة الغضبية أو السبعية وهذه القوة مقرها القلب.

والثالثة : قوة مرتبة في خدمة قوة عليا، هي أعلى هذه القوى

الثلاث وهى مصدر العلم، وهذه القوّة هى القوّة العاقلة ومقرها الدماغ.

وهنا يتفق أفلاطون مع سقراط فى مسزج الفضيلة بالمعرفة وتوحيدها. بيد أن الفضيلة تكون فى معرفة الخير أى فى التشبه بالله. ولما كان الله هو الوحدة المنظمة والمرتبة لجواهر الأشياء، فالتشبه به هو تنظيم قوى النفس المختلفة وترقيتها إلى ذروة الكمال :

ويقابل كل جزء من أجزاء النفس فضيلة :

فلاعتدال فضيلة النفس الشهوية..

والشجاعة فضيلة النفس الغضبية..

والحكمة فضيلة النفس العاقلة..

« ويرى أفلاطون أن النفس قد قضى عليها أن تهبط إلى العالم الحسى، وعليها أن تتطهر حتى تصعد مرة أخرى إلى عالمه الأول. والصعود إنما يتيسر لها عن طريق المعرفة الحقة. فإذا هى عرفت حقيقتها أخذت تتحرر من البدن وتبعد شيئاً فشيئاً، حتى مشارف العالم الذى هبطت منه. وليس هناك ما يشبه الفلسفة فى هذا الصدد سوى نوع من الوحي، أو الإلهام، أو الحسب المثالى، الذى يرفع النفس دفعة واحدة نحو العالم العلوى. ومن هذا يتبين لنا أن أفلاطون متصوّف وأنه يجمع بين نوعين من التصوف :

(أ) تصوّف عقلي عن طريق الفلسفة، وهو التصوف الذي يرى صورة منه عند الفارابي، وابن سينا، وابن طفيل، ممن مزجوا التصوّف بالفلسفة، وعند الحلاج بصفة خاصة.

(ب) تصوّف روعي خالص يقسوم على المنحة وهو منحة إلهية. (١).

ولأفلاطون أساطير عديدة، ولكن التي تختصّ النفس هي الأساطير الثلاثة الآتية :

١ - أسطورة الكهف، وهي خاصة بالعرفة، وتبين كيف تكتسب لكي تصل النفس عن طريقها إلى العالم العلوي.

٢ - أسطورة البامفيلي.

٣ - أسطورة العربة.

ونقتصر هنا على ذكر أسطورة البامفيلي فننقلها فيما يلي :

أسطورة البامفيلي: (٢)

تبدأ هذه الأسطورة بتذكير سامعيها بأن أفلاطون لن يقصّ عليهم

(١) عن كتاب «دراسات في الفلسفة الإسلامية» للدكتور محمود قاسم ص ١٢ و١٣.

(٢) عن كتاب «في النفس والعقل» ص ٣٧ - ٤١ عن كتاب

La republique 614 a-618.

إحدى قصص «الأوديسة» بل قصة رجل شهيم هو «إز» بسن
أرمينوس» أحد أبناء مدينة «بامفيليا». فقد استشهد هذا البطل في
إحدى المواقع. وبعد أن مضى على مقتله عشرة أيام هرع الناس إلى
ميدان الواقعة ليجمعوا جثث القتلى التي بدأ البلى يدب فيها ديبًا
حيثًا. ولكنهم وجدوا جثة «إز» في حالة طيبة فحملوه إلى عشيرته
تمهيدًا لدفنه. ولما وضعوه في اليوم الثاني عشر على محفة الإحراق
عادت إليه الحياة، وأخذ يقص عليهم ما رآه في العالم الآخر. فقال
إن نفسه لما غادرت بدنه اتخذت طريقها مباشرة نحو العالم الآخر في
صحبة عدد كبير من النفوس الأخرى فانتهى المسير بها جميعًا إلى
مكان توجد فيه فتحتان في الأرض تقابلهما فتحتان أخريان في السماء.
ورأوا جمعًا من القضاة قد اتخذوا لأنفسهم مجلسًا بين هذه الفتحات
لكي يحكموا بين النفوس التي كانت تقبل عليهم من الحياة الدنيا.
فكانوا يأمرون الصالح منها بالاتجاه نحو الميمنة، ويأمرون الطالح منها
بالاتجاه نحو الميسرة. أما أصحاب اليمين فكانوا يصعدون صوب السماء،
وقد حملوا على صدورهم ألواحًا دَوَّنت فيها الأحكام الخاصة بهم.
وأما أصحاب الشمال فكانوا ينحدرون في طريق هابط، وقد كتبت
أفعالهم في صفحات علقت على ظهورهم. فلما اقترب بدورهم من
القضاة أخبروه أنه سوف يعود من حيث أتى حتى يجز الناس بما رأى
في هذا العالم الذي يوجد تحت الأرض، وأمره أن يسمع ويلاحظ
ما يدور أمامه في هذا المكان. فرأى نفوسًا يتجه بعضها إثر بعض

نحو إحدى فتحتى الأرض بعد أن علمت مصيرها، بينما كانت الفتحة الأخرى تقلف بنفوس تصعد مجهدة مكفهرة من باطن الأرض وقد علتها غيرة. وكانت تهبط من إحدى فتحتى السماء نفوس راضية طاهرة. وكان يبدو أن كلنا الطائفتين آتية من رحلة بعيدة. ثم ضربت النفوس خيامها فى مكان فسيح كما لو كانت فى عيد حافل. وكان إذا عرفت نفس نفساً أخرى يادلتها التحية. وسألت النفوس الصاعدة من جوف الأرض أخوتها المهابطة من السماء عما رأت فى عالمها، وكذا العكس. وأخذت نفوس أخرى تقصّ مآسيها وتستنّ وتبكي وهى تذكر الآلام التى ذاقتها فى أثناء رحلتها فى جوف الأرض طيلة ألف سنة. أما النفوس الصالحة فكانت تقصّ أخبارها، وتحدث النفوس الأخرى عن ملذات السماء وعن مظاهر الجمال اللانهائى فيها..

وعلم «إز الياقيلى» أن النفوس التى ارتكبت بعض الخطايا الجسام كقتل النفس تعاقب عقاباً مفرطاً، وتظل فى العذاب دهوراً طويلة، وأن النفوس الطاهرة تلقى الشواب العظیم جزاءً وفاقاً على ما كسبت من خير فى أثناء حياتها الدنيوية. ثم تذكر قصة رجل مستبد طاغية، فأخذ يبحث عنه ليعلم كيف كان مصيره، فلم يجده، وفجأة رآه يحاول الخروج من فوهة الأرض فى صحبة جماعة من المستبدين والسفاحين والقتلة. وفى تلك اللحظة التى خيل فيها إلى هؤلاء أنهم أوشكوا أن يسودعوا العذاب خلف ظهورهم ارتجبت

الأرض، وأوصدت الفتحة في وجوههم، فكان لذلك دوى عظيم وجاءت جماعة من الزبانية يجرون هؤلاء مكبلين بالأغلال التي كانت تنوء بها أعناقهم وأيديهم وأرجلهم.

ثم بدت إلهة المصير وأخذت تنادى النفوس : أيتها النفوس العابرة.. سوف تبدآن حياة جديدة، وسوف تولدن في أجسام فانية. وليس الشيطان هو الذى سوف يقترح لكُنْ، بل أنتن اللاتي تخترن شياطينكن. وإن أول شيطان يخرج بالافتراع هو أول من يختار الحياة التي سوف يكون قريناً لها بالضرورة، وإن كل نفس مسئولة عن اختيارها، وليس للإلهة دخل في هذا الاختيار^(١). ثم ألقست الإلهة بعد ذلك نماذج الافتراع على النفوس، فأخذت كل نفس منها النموذج الذى وقع على مقربة منها، ما عدا إرث فإنه لم يسمح له بأن يلتقط شيئاً منها. وحينئذ علمت كل نفس من أى مجموعات الأجسام سوف تختار جسماً لحياتها الجديدة. فقد كانت هناك مجموعات تحتوى على عدد كبير من الأجسام التي تفوق في جملتها عدد النفوس الموجودة. وليست هذه الأجسام خاصة بالبشر وحدهم، بل تحتوى أيضاً على جميع أنواع الحيوان. وهنا يلعب الحظ دوره. فقد تختار النفس أحد أجسام المستبدين أو الرجال المشهورين أو النساء الجميلات أو بعض

(١) كان الإغريق يعتقدون أن لكل نفس شيطاناً أو قريناً يصحبها طول

الحياة.

الأجسام الصحيحة. وقد تختار أحد أجسام الحمقى أو المغمورين أو الأشرار أو أحد أجسام النساء المغمسورات أو القبيحات أو بعض الأجسام المريضة. وتلك لحظة دقيقة يقرر فيها مصير النفوس. وحينئذ فليس الاختيار مطلقاً. ومع ذلك فليس للنفس التي أساءت الاختيار أن تندب حظها. فقد كان عدد الأجسام التي تضمها كل مجموعة من هذه المجموعات كبيراً جداً إلى حد أن آخر النفوس اختياراً تجدد أمامها عدداً كافياً منها. وهناك عامل آخر يحدد هذا الاختيار، فإن لمواقع النجوم تأثيراً كبيراً في توجيه النفوس. ومن ثم يمكن القول بأن هناك نوعاً من القضاء المبرم، وأنه ليس لهذا الاختيار في الحقيقة سوى مظهره. فإن بعض النفوس تجدد الاختيار من أول فرصة تتاح لها. ولكن كتب على بعضها الآخر أن يتعثر ويشقى طويلاً فلا يبتدىء إلى الاختيار إلا بعد طول عناء. وهذه هي نفوس الطغاة والمجرمين.

وإنما كانت كل نفس مسؤولة عن اختيارها لأن الآلهة لم تفرض عليها جسماً معيناً بالذات. ولأنها هي التي اختارت الشيطان أو الجن الذي سوف يقود خطاها في حياتها المقبلة. ومن الطبيعي أن تحاول كل نفس، إذا ما سنحت الفرصة أن تختار حياة موفقة حتى لا تتردى من جديد في أخطائها السابقة التي أدت إلى العذاب مدة ألف سنة. وتجدد النفس في ذاكرتها بعض آثار الحياة الماضية فتسترشد بها في اختيارها الجسم الجديد.

ولكن يجب التفرقة بين نوعين من النفوس. فهناك نفوس

استطاعت أن تتطهر من أدرانها، وهي النفوس السعيدة التي تصعد صوب السماء وتنطلق إلى العالم العقلي لكي تذوق فيه النعيم جزاء على ما كسبت من خير. وتلك النفوس هي نفوس الفلاسفة التي إذا استطاعت أن تحسن الاختيار ثلاث مرات متتالية مرة في كل ألف سنة، فإنها تبتعد عن هذا العالم الحسى. أما النفوس الأخرى فإنها إذا انتهت من حياتها الأولى، فإنها تلقى حسابها، فيذهب بعضها إلى باطن الأرض لكي تكفر بالعذاب عن ذنوبها، ويذهب بعضها الآخر إلى مكان خاص في السماء، وتحيا هناك حياة هائلة. فإذا مضت ألف سنة أخرى فإنها تختار جميعها، سواء تلك التي كانت في الأرض، أم في السماء، حياتها الثانية.

تعقيب على الأسطورة :

ونحن نرى أن هذه ليست أسطورة، وإنما هي مشهد من مشاهد القيامة يدركه كل إنسان صفت نفسه، وسمعت سريره، وارتقت روحه. وفي ذلك يقول الرسول الكريم : «لولا أن الشياطين تحوم حول قلوب بني آدم لشاهدوا الملكوت». فأفلاطون عندنا ممن شاهدوا الملكوت لصفاء نفوسهم. ودليلنا هذه الصلة الواضحة مع آيات القرآن عن الحساب الأخرى للناس حيث يأخذ الناجون منهم كتبهم بإيمانهم :

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْقَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِي﴾.

(الحاقة ١٩ : ٦٩).

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوَّكَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، فَسَوْفَ يَحْسَبُ حِسَابًا سِيرًا﴾.

(الانشقاق ٧، ٨ : ٨٤).

وغيرهم يأخذونها بشاهسهم، أو من وراء ظهورهم كما جاء في
الآيات الكريمة :

﴿وَأَمَّا مَنْ أَوَّكَىٰ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ﴾

(الحاقة ٢٥ : ٦٩).

﴿وَأَمَّا مَنْ أَوَّكَىٰ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾.

(الانشقاق ١٠، ١١ : ٨٤)

وهناك أيضاً من مشاهد القيامة ما جاء في «فصوص الحكم»
للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي عما أظهره خالد بن سنان
وأخبر به بعد موته من أحوال الآخرة في البرزخ. وفي هذا يقول
ابن عربي: ^(١)

«... وأما حكمة خالد بن سنان فإنه أظهر بدعواه النبوة،
البرزخية. فإنه ما ادعى الإخبار بما هنالك إلا بعد الموت. فأمر أن
يبشّر عليه ويسأل فيخبر. أن الحكم في البرزخ على صورة الحياة
الدنيا، فيعلم بذلك صدق الرسل كلهم فيما أخبروا به في حياتهم
الدنيا. فكان غرض خالد إيمان العالم كله بما جاءت به الرسل

(١) عن كتاب «فصوص الحكم» للشيخ محيي الدين بن عربي، جزء أول
ص ٢١٣ طبعة دار الكتاب العربي بيروت.

ليكون رحمة للجميع. فإنه تشرف بقرب نبوته من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وعلم أن الله أرسله رحمة للعالمين. ولم يكن خالداً برسول، فأراد أن يحصل من هذه الرحمة في الرسالة المحمدية على حظ وافر. ولم يؤمر بالتبليغ، فأراد أن يحظى بذلك في البرزخ ليكون أقوى في العلم في حق الخلق. فأضاعه قومه... إلى آخر فصل الحكمة الصمدية التي شرحها الدكتور «أبو العلا عفيف» بقوله^(١):

«خالد بن سنان.. هو خالد بن سنان بن غيث العيسى من أهل زمن الفترة بين عيسى ومحمد عليها السلام، أو ممن عاش قبل زمن عيسى على بعض الأقوال. والمعروف عنه أنه كان يقول بالتوحيد قبل البعثة المحمدية، ناهجاً منهج الملة الخنفية. وقد عدّه كثير من المسلمين، ومنهم ابن عربي، من الأنبياء، استناداً فيما يظهر على ما يروى من أن ابنته أو إحدى بنات ذريته جاءت إلى الرسول فقال لها: «مرحباً يا بنت نبي أضاعه قومه». ويقال إنها لما أتت إلى النبي سمعته يقرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ فقالت قد كان أب يقرأ هذا.

ويظهر أن سبب شهرة خالد بين العرب ما حكوا من أن ناراً عظيمة ظهرت في بلاد عُبَس في الجاهلية تعرف بنار الحرتين وهي التي قال فيها الشاعر:

(١) من كتاب «فصوص الحكم» الجزء الثاني ص ٣١٧.

ونار الحرتين لها زفير يصم لهوله الرجل السميع

وكانت تظهر ساطعة بالليل، فإذا كان النهار ارتفع منها دخان عظيم، وربما بدر منها عنق فأحرق من مر بها. فضزع العبيون إلى خالد بن سنان، وكانوا يقصدونه في اللوات فأخذها. قالوا: إنه أخذ من كل بطن من بني عيس رجلاً، وخرج بهم نحو النار ومعه درة حتى انتهى إلى طرفها، وخرج منها عنق كأنه عنق بعير، فجعل يضرب العنق بدرته ويقول: بدا بدا. حتى رجع، وجعل يتبعه والقوم يتبعونه كأنه ثعبان ينحك في حجارة الحرة، حتى انتهى إلى غار فانساب فيه فدخل خالد خلفه، فقال ابن عم له يقال له عروة ابن شبة: «لا أرى خالدًا يخرج إليكم». ولكنه خرج سالماً ويسداه على رأسه من الألم الذي أصابه من صياح القوم به. فقال لهم: «ضيعتموني وأضعم قولي وعهدي»؛ لأنه كان عاهدكم ألا يصيحوا به وهو في المغارة. ثم أخبرهم بموته وأمرهم أن يقبروه ويرقبوه أربعين يوماً. فإذا أتى قطع من الغنم يقدمه حمار أبتز وحاذى قبره ووقف، نبشوا عليه قبره، فإنه يقوم ويخبرهم بجلية الأمر بعد الموت عن شهود ورؤية، فيحصل للخلق كلهم عين اليقين بما أخبرت به الرسل. فلما مات وحدث ما أخبرهم به من قدوم قطع الغنم، همّ مؤمنو قومه وأولاده أن ينبشوا عليه، فأبى أكابرهم وقالوا يكون ذلك عاراً علينا عند العرب، فيقال فينا أولاد المنبوش، فحملتهم الحمية الجاهلية على

ذلك، فضيعوا وصيته وأضاعوه^(١).

هذا ما نعرفه عن قصة خالد بن سنان نسي العرب قبل الإسلام، وقد ذكره ابن عرب في هذا النصّ ممثلاً للنبيّة البرزخية. وهي الإخبار بأحوال الآخرة في البرزخ. وقد كان هذا قصد خالد عندما سأل أهله أن ينشوا عليه قبره ليخرج إليهم، فيخبرهم أن أمر الآخرة إنما هو على نحو ما وصف الأنبياء لأقوامهم، وبذلك يصدق دعوى الأنبياء جميعاً. ولكنه ضيعه قومه لأنهم لم ينشوا قبره كما طلب ولم يبلغوه مراده.

* * *

أما ما كان يعتقد الإغريق من أن لكل نفس شيطاناً أو قريناً يصحبها طول الحياة، فهو معنى يثبته الإسلام فرسول الله يقول: «كل ابن آدم له قرين أو شيطان. قالوا: حتى أنت يا رسول الله؟ قال: حتى أنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير» وفي ذلك وردت الآيات الكريمة:

﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾.

(سورة قى ٢١ : ٥٠)

(١) راجع شرح القشاشاني على الفصوص ص ٤٢٦. تشارن «بلوغ الأرب» للألوسي ج ١ ص ١٧٦ وج ٢ ص ١٦٤ وما بعدها.

﴿قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد﴾ .
(سورة ق ٢٧ : ٥٠)

﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾ .
(سورة الزخرف ٣٦ : ٤٣)

كما أننا نستخلص من هذه الأسطورة أيضاً كثيراً مما نصت عليه الشرائع السماوية، وُعدت الأنبياء لسوق الناس إليها ترغيباً وترهيباً، مبشرين ومنذرين. فإله ما خلق الدنيا، وهى دار فناء، إلا لتكون معبراً للحياة الباقية الخالدة، أى دار الخلود. والناس فى امتحان واختبار، يحصدون للأجلة، حاصد وردٍ وحاصد عوسج. ومن يزرع يحصد. أما الحياة الأخرى فهى حياة تتحقق فيها عدالة رب الأرضين والسماوات، لا غبن ولا ظلم، ولا تحيز ولا محاباة، ولا مراعاة لحظائر أو جاه الكل سواسية أمام عدل الإله. لا فضل لأبيض على أسود، ولا لعرب على عجمى إلا بالتقوى: ﴿إن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾^(١) .. حياة يحصد فيها الإنسان ما زرعه فى دنياه من خير أو من شر. و﴿من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾^(٢) .. فهناك يوم ﴿يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود

(١) سورة الحجرات ١٣ : ٤٩ .

(٢) سورة الزلزلة الآيتان ٧ و ٨ : ٩٩ .

هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغفركم الحياة الدنيا
ولا يغفركم بالله الغرور»^(١) ..

وتؤكد أسطورة «البامفيلي» ما ذكره سيدنا علي رضي الله عنه في
بعض خطبه: إنما خلقتم للأبد من دار إلى دار، تنتقلون من
الإصلاّب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا، ومن الدنيا إلى
البرزخ، ومن البرزخ إلى الجنة أو النار. ثم تلا قوله عز وجل:
﴿منها خلقناكم، وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾^(٢) ..

كما أنها تؤكد ما ذهب إليه أهل الحق من أن النفوس مختلفة
بحسب جواهرها: فمنها نفوس علوانية نورانية لها شعور بعالم الأرواح،
فتستفيد بالفيض من عالم الأرواح أموراً عجيبة، ومنها نفوس كثيفة
كدرة مشغوفة بالجسائية، لاحظ لها وتارة بالفتن في الروح»^(٣) .

وقد يكون هذا قريباً من المعنى الذي جاء في الآية الكريمة التي
تنصّ على مشهد من مشاهد الحساب في الآخرة وهي:
﴿وعلى الأعراف»^(٤) رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب

(١) سورة لقمان آية ٣٣ : ٣١ .

(٢) سورة طه آية ٥٥ : ٢٠ .

(٣) عن كتاب «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» للقزويني ص ٢٢٤ .

(٤) الأعراف: السور المضروب الذي يفصل بين أصحاب الجنة وأصحاب

النار.

الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون. وإذا صرفت
أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين.
ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا: ما أغنى
عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون^(١)،^(٢).

وحياة الإنسان لا تنتهي بموتة؛ وليست الوفاة نهاية القصة، فهي
لا تعدو أن تكون مجرد تغيير من حالة إلى أخرى، أو من صورة إلى
غيرها، أو نقلة من هذه الدار إلى الدار الخالدة. فالنفس خالدة
لا تموت، وهي التي تلقى الحساب والجزاء، وتنال ما يقضى به على
الإنسان من نعم أو عذاب في الدار الآخرة. فيقول سبحانه وتعالى:
﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾^(٣). ويقول عز
وجل: ﴿أن تقول نفس يا حسرت على ما فرطت في جنب الله وإن
كنت لمن السافرين. أو تقول لسو أن الله هداة لكنت ممن
المتقين﴾^(٤). إلى غير ذلك من الآيات البينات التي تؤكد تماماً حقيقة

(١) التفسير المأثور هو أن «أصحاب الأعراف» هم فاعل الجملة التي جاءت
في آخر الآية ٤٦: ﴿لم يدخلوها﴾ وفي الآية ٤٧ من السورة نفسها. ووفقاً لذلك
يكون مقام هؤلاء إلى حين على كل حال، لا في الجنة ولا في النار، وإنما هم في
مقام أو حال وسط. ونتيجة لهذا التفسير جعل للأعراف معنى الجزخ.

«دائرة المعارف الإسلامية» ص ٥٤٥

(٢) سورة الأعراف الآيات ٤٦ و ٤٧ و ٤٨ : ٧.

(٣) سورة الإسراء آية ١٤ : ١٧.

(٤) سورة الزمر الآيتان ٥٦ و ٥٧ : ٣٩.

بعض ما جاء في أسطورة «البامفيلي» والله يقول الحق وهو يهتدى
السيبل.

النفس عند الهرامسة :

منذ أواخر القرن الرابع الميلادي كانت المؤلفات الهرمسية تنسب
إلى هرمس^(١)، الإله المصري للحكمة والفنون. وكانت في رأي مؤلفي
ذلك الوقت حاوية للاهوت المصري والفلسفة المصرية ترجمت من
اللغة المصرية إلى اللغة اليونانية بفضل كهنة مصريين تعلموا اليونانية.
والحقيقة أنه ليس هناك بالإطلاق ما يدل على وجود تأليف
باللغة المصرية القديمة نسب في عهد الفراعنة إلى الإله هرمس هذا،
بل ليس هناك ما يدل على أن المؤلفات الهرمسية السني في أيدينا
كانت موجودة في العصر البطلمي إلا إذا استثنينا بعض أجزائها
الخاصة بالتنجيم والكيمياء. أما الأجزاء التي تعنينا والتي تهتم قبل كل
شيء بالمسائل الفلسفية والإلهية، فلا يمكن إرجاعها إلى ما قبل القرن

(١) هرمس: كان حكيماً إغريقياً ألَّه اليونانيون وسموه HERMES ولقبوه
بهرمس للثلاث الحكمة Trismegiste. ونسبت إليه بعض المؤلفات الفلسفية. وعرفه
العرب ثم جاء منهم من قال إن سيدنا «إدريس» هو «هرميس» الإله اليوناني
الإغريقي الذي ألَّه أيضاً قدماء المصريين (راجع النص الرابع من «فصوص الحكيم»
لابن عربي) ويقال إن هرمس هذا أسطورة عن حكم مصري قديم ضاعت مؤلفاته.

الميلادى الثانى^(١).

وفى عام ١٩٢٩ أصدر العالم الإنجليزى سكوت Scott أول طبعة
عققة لنصّ الكتب الهرمسية^(٢). ثم جاء العلامة فستوجير فى عام
١٩٤٦، فبدأ بإصدار طبعة جديدة لجميع المؤلفات المنسوبة إلى
هرمس مع بعض تقيحات هامة، وترجمة فرنسية لها^(٣).

وإن نظرنا بوجه عام إلى النصوص الهرمسية وجدنا أنها مجموعات
لما يسمى باليونانية Logos: والترجمة الحرفية لهذه الكلمة هى «قول»
أو «قول العقل». فالمؤلفات الهرمسية هى إذن مجموعة «أقوال» أو
بعبارة أصح مجموعة لمجموعات «أقوال». وتمتاز هذه المجموعات بأن
كلّ منها يجمع عدّة «أقوال» حول موضوع معين، يكون إما مرتبطاً
بعلم النجوم أو بعلم الكيمياء، هذا فيما يتعلق بأقدم «الأقوال» زمنياً
وأما بالفلسفة والدين فيما يتعلق بأحدثها. وهذه الأقوال الأخيرة هى
التي تعنيها هنا.

وإذا قارنا هذه «الأقوال» بما نعرفه من المؤلفات الفلسفية فى

(١) راجع «تهدى لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها» للدكتور نجيب بلدى
ص ٨٩ - وراجع أيضاً: Festugiere: Revelation d'Hermès Trismégiste
(Paris 1943) I. 74-81.

Hermetica I. II (Oxford 1924-1936) (٢)

Hermès Trismégiste I-IV (Bude-Paris 1945-1954). (٣)

العصر اليوناني القديم، وجدنا أنها تشابه هذه في بعض الأحيان، وأنها تختلف عنها في أغلب الأحيان. فالقول الهرمسي، ليس محاوراً كمحاورات أفلاطون. وإن كان كثيراً ما يبدأ بنقاش أو حوار صغير، فعامل الجدل العقلي غائب فيه. وليس «القول» مع ذلك «درسا» بالمعنى الأرسطي، كالندروس التي عملت منها كتب أرسطو المعروفة. لقد كان «القول» الهرمسي يفترض في السامع تهيؤاً للإصغاء والتأمل الروحي، واستعداداً للعمل بما يرشده إليه العلم^(١).

إذن فقد كان «القول» الهرمسي قريباً من «أحاديث» أفلوطين، كما سجلها فورفيروس في «التساقيات». ففي «التساقيات» يبدأ أفلوطين إما بنقاش صغير، أو تعليق على قول أرسطو أو أفلاطون، ثم يعمل تدريجياً على توجيه السامعين إلى الحقائق العليا التي يقوم عليها الوجود. كذلك يفعل الهرمسي. غير أن هناك فارقاً واضحاً: فبينما كان أفلوطين يعتمد على رياضة عقلية، توجهه هو وتلاميذه إلى معرفة عقلية لتلك الحقائق، فالهرامسة يعتمدون على تهيئة روحية، وإرشاد روحي ينتهي عند التلاميذ ومعلمهم بصلاة الشكر^(٢).

وقد قام العلامة الألمان ولهم بوسيت بأبحاث هامة جداً عن المدارس التي قامت في نهاية العصر الهيلنستي بين الإسكندرية وروما،

(١) كتاب «تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها» ص ٩٥/٩٦.

(٢) نفس المرجع ص ٩٦.

وعرض فيها إلى المؤلفات الهرمية، وانتهى إلى أن جميع هذه المؤلفات هي آثار لكتب كاملة، كانت التعبير النهائي عن تعليم كان بإرادة أصحابه خفياً، «باطنياً»^(١).

والنظرية الهرمية للنفس، ليست جديدة في مادتها وفحواها على الفلسفة اليونانية بوجه عام، وعلى الفلسفة الأفلاطونية بوجه خاص، بل إن هذه النظرية أفلاطونية في فحواها، وإذا عملنا على مقارنتها بالتعاليم والمؤلفات المثلة للأفلاطونية في عصر الهرامسة أنفسهم^(٢).

وقد درس فستوجير مسألة النفس هذه فيما تبقى لنا من مؤلفات الأفلاطونيين المعاصرين للهرامسة، والسابقين لهم مباشرة ودرسها عند اللاحقين للهرامسة.

وأوضح فستوجير معالم تلك الأفلاطونية التي دخلت في تعاليم الهرامسة وتغلغلت في علاجهم لمسألة النفس. وبين الاتفاق الكامل بين التعاليم الهرمية والمؤلفات السابقة، فيما يتعلق بعرض المسائل وترتيبها وحلونها الرئيسية، وأن الاختلافات الرئيسية بينها راجعة إلى الجيو الروحي الذي درست فيه المسائل، وإلى أغراض هذه الدراسة وأسلوبها وتنحصر تلك الاختلافات في أمرين رئيسيين: أحدهما، أن الإجابات الهرمية على المسائل المتعلقة بالنفس، ليست موضع نقاش

(١) نفس المرجع ص ٩٧.

(٢) نفس المرجع ص ٩٩.

ثم اقتناع عقلي، بل هي حقائق تقرر وتقبل عن إيمان وثيق. والشأن
أنها لا تتخذ صيغة الاستدلال والبرهان، بل لغة الأسطورة وصيغة
الاعتقاد الديني^(١). بين جميع هذه المؤلفات الأفلاطونية والمؤلفات
الهرمسية، اتفاق في تقسيم المسائل الرئيسية المتعلقة بالنفس، وفي
ترتيب تلك المسائل وهي أربع: طبيعة النفس وأصلها، حلول النفس
في الجسم، مصير النفس في حياتها البدنية، عودة النفس إلى أصلها
وإتحادها بالآله^(٢).

ويبدو الموقف الهرمسي بكل قوته في النصوص التي نقلناها عن
هرمس الحكيم نفسه من كتابه النادر «زجر النفس»^(٣) نثبها فيما يلي
وفي اعتقادنا أنها تبين رأيه في النفس بكل وضوح:

... ولقد برزت النفس من أصل هي فرعه. وهذا الفرع وإن
جري إلى غاية في البعد عن أصله، فإن بينه وبين أصله وصلة

(١) نفس المرجع ص ٩٩ عن: Festugiere: Révélation III 19-26.

(٢) نفس المرجع ص ١٠٠.

(٣) كتاب منسوب إلى هرمس عن المشرقي أوتو برتندهورف بتحقيقه وطبعه
ونشره في مدينة بون سنة ١٨٧٣ مع ترجمته اللاتينية، بعد أن قابله على سبع نسخ
منها: نسخة رومية وجدت في مكتبة الفاتيكان أحضرها السمعان من الشرق فيما
أحضره. ونسخة مكتوبة بخط الكوفي محفوظة في لبيك بألمانيا. ونسخة في مكتبة
الأكاديمية في بون بسوسرا مكتوبة بالسرمانية. ونسخة ليون نسخت في القسطنطينية
سنة ١٦٥٤ ينسب فيها الكتاب لأفلاطون. ونسخة ببغداد، وأخرى بصور.

وربماطاً. وبهذه الصلة والرابطة يستمد كل فرع من أصله. كالشجرة المثمرة وإن بعدت عن أصلها المبدى لها، فإن بينه وبينها اتصالاً ذاتياً به يكون استمدادها منه. ولو عنمت ذلك الاتصال بأن يقطع بينها قاطع مما هو سواها، لحال بين الأصل والفرع وأوجب قطع المادة عن الفرع ففسد في الحال وتلف. والنفس لا بدّ راجعة إلى مبدئها الذي هو أصلها وتبعها ذلك أن كل جوهر إنما شرفه وعزّه أن يرجع إلى عنصره فيكون في أصله ومحلّه. (١)

«إذا كان الجسد بالنفس يحيا، وبها يبصر ويسمع ويشم ويلذوق ويلمس، فقد وجب ضرورة الإقرار بأن الجسد آلة النفس ومن القبيح أن تكون الآلة تدبّر الصانع وتستعبده. فإنه هو الصانع المدبر لا الآلة؛ لأن الجاهل إذا اتخذ آلة اشتغل بزینتها وتجميلها وترفيها عن استعمالها والاكساب بها، ثم يحصل على عبادته لها، فحينئذ ينقلب الحق باطلاً ويصير العدل جوراً، والحسن الجميل قبيحاً سمجاً؛ إذ يصير الحى البصير السميع العاقل الشريف عبداً للعبث الأعمى الجاهل الأصم الخسيس». (٢)

«إن جوهر النفس جوهر عالى الشأن، رفيع الشرف، لمناسبتها كل العوالم وحلولها بكل محل. وإنما تنسب في بعض الأحيان إلى عالم

(١) ص ٢٠.

(٢) ص ٦٥/٦٤.

لطبيعة فتكون إنسانية مشاهدة المحسوسات، مشافهة المآكل والمشارب
 جميع معاني الطبيعة. وتارة تنسب إلى عالمها الخاص بها فتكون نفساً
 حية حساسة مستعملة الحركة ذات بحث وتأمل واختيار وإرادة، فهذه
 للعاني هي معاني النفس وهي الحياة المنبثقة في جميع ما احتوى عليه
 ملكوت النفس. وتارة تنسب إلى عالم العقل فتكون منتزعة الصور
 عن الهيولى، مدركة للبسائط الأولى مصورة «متصورة مميزة عاقلة لجميع
 للعاني المفردة البسيطة. وتارة تنسب إلى عالم اللاهوت، فتكون بالغة
 الخير والجلود، أمرة بها خلواً من الشر والجور، ناهية عنها. حكيمة
 الأفعال متقنة الأعمال. ومن أوضح الدلائل على أن النفس تناسب
 العلة الأولى، ما هو موجود في خلقها من أنها تسمو إلى الإحاطة
 بجميع الأشياء التي يحتوى عليها الملكوت الأعظم. فإنها لن تلق
 مستقرة راضية كل الرضا دون أن تبلغ العالم العقلي بجميع ما فيه.
 فحيث تلغى النفس غير طالبة شيئاً، مستقرة راضية كل الرضا.
 ومن استعمل الإقذار في ذاته توجهت إليه حقيقة ذلك»^(١).

٢ - وماذا كان رأى أفلوطين المصرى

يعتبر أفلوطين المصرى (٢٠٥ - ٢٧٠ م) هو المؤسس الحقيقي
 لمدرسة الأفلاطونية الحديثة. ولد في «ليقوبوليس» بالوجه القبلى بمصر

(١) ص ٧١/٧٠.

(أسيوط) في بدء الجيل الثالث سنة ٢٠٥ م. سافر إلى الإسكندرية وهو في الثانية والعشرين من عمره حيث التقى بأستاذه «أمونيوس» الملقب بـ «سكاس» أي الخيال - فقد كان يشتغل حالاً قبل أن يشتغل بالفلسفة - سنة ٢٣٣ م. وبدأ يطلق عليه العسم بعد أن استمع إليه وأعجب بتعاليمه وقال: «هذا هو الرجل الذي أبحث عنه»، ولزم مجلسه أحد عشر عاماً ثم سافر إلى بلاد فارس والهند ليقتف على المذاهب الشرقية، ثم رحل في الأربعين من عمره إلى روما حيث استقر بها وأسس مدرسته وعلم فيها زهاء الخمسة وعشرين سنة حتى مات سنة ٢٧٠ م.

ولقد اشتهر أفلوطين بنزعته الروحية العميقة، ولم يعرف العرب عنه كثيراً وإنما كانوا يطلقون عليه اسم «الشيخ اليوناني». ومن ذكره من المؤرخين العرب بهذا الاسم الوصفي أبو سليمان السجستاني، والشهرستاني، ومسكويه، والقفطى. وكانوا يسمون على مذهبه «مذهب الإسكندرانيين».

وقد تابع الفلاسفة الإسلاميون منهج الأفلاطونية الحديثة، منهج التوفيق والتنسيق. والفلسفة الإسلامية، في الحقيقة، ليست إلا فلسفة أفلوطينية إسلامية. وقد أثرت الأفلاطونية الحديثة في عدة طوائف إسلامية. (١).

(١) عن كتاب «نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام» للدكتور علي سلمي النشار

وقد ألفت كتباً كثيرة تحتوي على أربع وخمسين رسالة جمعها تلميذه «درفوريوس» الصوري، ووزعها على ستة مجلدات في كل مجلد تسع رسائل فسميت بالتاسوعات **Enneads** نسبة إلى العدد تسعة.

وفي هذه الرسائل عرض أفلوطين مذهبه «الأفلاطونية الحديثة» ويحتل الخير الأوحد قته، وعلى طريق الفيض تنبثق عنه الموجودات في سلسلة متدرجة حتى العالم المحسوس الذي عده خداعاً وشرّاً. والهدف الأسمى للنفس هو الوحدة مع الخير الإلهي.

أما حياته الشخصية فبنيت على الزهد والتقشف لتطهر الروح من أدران الجسد. فلم يكن ينعم بالتوم إلا بقدر ما تضطره إليه الحاجة اضطراراً، ولم يبيع لنفسه من الطعام إلا ما يقيم أوده، وقد حرّم على نفسه أكل اللحوم. وكان يصوم يوماً بعد يوم.

ويكاد كل مثقف أن يعرف عن أفلوطين الشيء الكثير. وكثير من الذين يعرفونه ويناقشون آراءه ويتحمسون لأفكاره يرددون بعض كلماته المعروفة: الواحد، الفيض أو الإشعاع، السذي تصدّر به الموجودات الكثيرة من الموجود الواحد الأول، التدرج الذي يهبط من العقل إلى النفس إلى المادة، المادة أصل الشر، الفناء والسوجد... إلخ. كما يكاد كل من له إلمام بالفلسفة أن يعرف أن أفلوطين قد علم أن مصير النفس التي سقطت عن الواحد هو أن تعود مرة أخرى إلى الأصل الأول الذي نبعت منه، وتتحد معه في لحظات نادرة من

حياتها بما يشبه الوجد والإنجذاب. الأمر الذي وفق إليه أفلوطين أربع مرات في حياته، على نحو ما يروى عنه تلميذه ومؤرخ حياته^(١). لقد كان أفلوطين متصوفاً، بل كان منغمراً انغماراً كلياً في تأمل الله حتى لقد فقد شعوره بكل شيء. وبذلك بلغ أقصى درجات سعادة النفس، تلك السعادة التي نتيبها من قوله: «إن النفس وقد ظهرت على هذا النحو، تصبح كلها فكراً وعقلاً، قد تخلّصت كلها من الجسد، وتغدو كياناً عقلياً، وتكون تماماً من ذلك الصنف الإلهي الذي يفيض منه ينبوع الجمال بل عنصر الجمال بأكمله»^(٢). وهذه هي الطريقة التي يخبر بها أفلوطين عن الخبرة التي لا سبيل إلى النطق بها: «لقد حدث مرات كثيرة، أتى رفعت من البدن إلى نفسي، وأصبحت خارجياً بالنسبة لكل الأشياء الأخرى ومتركزاً في ذاتي، وناظراً إلى جمال رائع.. عند ذلك كنت أكثر تحقّقاً مني في أي وقت آخر بالاتصال بأعلى الدرجات، قائماً بأنبل حياة ومحصلاً حالة الاتحاد بالذات الإلهية»^(٣).

- (١) راجع «مدرسة الحكمة» للدكتور عبد الغفار مكاوي ص ٦٣/٤٦.
(٢) تلسوع ف ١-٦: ٦ ترجمة مالك كنا (لندن ١٩١٧) ص ٨٥ وأيضاً راجع «حضارة الإسلام» تكليف جوستاف جرونباوم ترجمة عبد العزيز جاويد ص ١٧٤.
(٣) تلسوع ٤ - ف ٤ - ف - ١ نفس المرجع - وهذه الفقرة التي يصف فيها أفلوطين خبرته العليا كانت معروفة للعرب عن طريق كتاب اسمه «إلهيات أرسطو» نشره ف. ديستريس (لنبرج ١٨٨٢) ص ٨ المترجمة (ليسنج ١٨٨٣) ص ٨ - ٩. انظر كتاب «حضارة الإسلام» ص ٤٤٩.

إن أكبر ما يشتهر به أفلوطين، هو «التاسوعات». ولا يذكر مفكر أو فيلسوف اسم أفلوطين، إلا ويقرون به هذه التاسوعات باعتباره صاحبها الأصلي.

والموضوع الرئيسي في رسائل أفلوطين هو نجاة النفس الإنسانية من سجنها المادي، وانطلاقها من عالم الظواهر الحسية إلى أصلها، وموطنها الذي جاءت منه، أي من عالم الوجود والحقيقة.

لذلك فهو يقسم منهجه إلى قسمين: قسم يعبر به عن الجدل الصاعد أو إلى الصعود من العالم الحسي إلى العالم العقلي أو الحقيقي. . وقسم يعبر به عن الجدل النازل، وهو النزول من العالم المعقول إلى العالم المحسوس.

والذي يهنا هنا في بحثنا هذا من رسائل أفلوطين هو التاسوع الرابع. وموضوع هذا التاسوع هو النفس، ويتكلم فيه عن النفس الجزئية، ثم النفس الكلية، الموجودة في العالم المعقول. ويجعل تركيزه المطلق في عرضه الفلسفي السرائع على الاهتمام بموضوع النفس الإنسانية، وكيف تستطيع أن تتخلص من السجن المادي الذي ابتليت به، وكيف تستطيع أن ترتقي إلى أعلا، إلى عالم أفضل وأرق، هو العالم المعقول الذي يراه ممكناً للإنسان عندما تتشقق روحه، ويتامل الحياة المعقولة، ويرفض كل ما هو حسي ومادي.

ويرى أفلوطين أن أول شيء انبثق من «الواحد» هو العقل،

وهذا العقل له وظيفتان : وظيفة التفكير في الله، ووظيفة التفكير في نفسه. وقد خلع أفلاطون على هذا العقل شيئاً من خصائص المثال الذى شرحه أفلاطون.

من هذا العقل انبثقت نفس العالم، وهى ليست مجسمة ولا قابل للقسمة، وهذه النفس ميلاناً فتميل علواً إلى «الواحد»، وتميل سفلاً إلى عالم الطبيعة، وقد انبثقت منها النفوس البشرية التى تسكن هذا العالم. نفس العالم - كالعقل - تنتمى إلى العالم الإلهى الروحانى الذى يقع فوق الحس، وهى تعيش عيشة خالدة لا تحدها حدود الزمن، إلا أنها دون العقل درجة، فهى تقف على هامش العالم الروحانى قريبة من حدود العالم المحسوس، ولو أنها ليست جثمانية فى ذاتها إلا أنها تميل إلى الأشياء الجثمانية فتتنظر إليها، وهى تقف بين الأشياء من جهة وبين العقل من جهة أخرى وسيطاً تنقل العلل والأسباب التى تبدأ من العقل فتوصلها إلى الأشياء^(١).

من هذه النفس الأولى - أو نفس العالم - خرجت نفس ثانية سماها أفلاطون بالطبيعة. وهذه النفس الثانية هى التى تشترك وحدها مع العالم المادى كما تخرج نفوسنا مع جسامنا، وهذه النفس الأخيرة - التى هى عبارة عن النفوس الجزئية الموزعة على الكائنات هى أدنى

(١) انظر قصة الفلسفة اليونانية، للدكتورين أحمد أمين وزكى نجيب محمود - الطبعة السادسة ١٩٦٦ ص ٢٣٣.

مراتب العالم الروحاني والخطوة التي تليها مباشرة هي المادة التي عسى
أبعد الكائنات عن الكمال. ويقول أفلوطين: إن انبثاق النفوس
الجزئية عن نفس العالم هو كانبثاق الضوء من مركزه، وكلما بعد عن
المركز ضعف حتى يصير ظلامًا، وهذا الظلام التام الذي انحسر عنه
ضوء النفس هو المادة، فالمادة ضوء سلب^(١).

ويقول أفلوطين: «... وقد أخطأ من ظن أن النفس هي
ائتلاف الأختلاط وامتزاجها على نسب مخصوصة كائتلاف أوتار العود،
وئس ما ظنوا... فإن النفس هي التي تفعل الائتلاف في أنواع
النسب، وهي القيمة على البدن، وتمنعه عن كثير من الأفعال البدنية
البدنية. وأما الائتلاف فلا يفعل شيئاً من ذلك، ولا يأمر ولا ينهى.
والائتلاف لا يفعل سوى الصحة، ولا يفعل الحسن والخيسال والوهم
والعقل. والائتلاف عَرَض، والنفس جوهر، والائتلاف انفعال يحتاج
إلى مؤلف والعناصر لا تؤلف نفسها، فالنفس بالبدن بمنزلة الموسيقار
يؤلف الأوتار وكذلك النفس هي التي تفعل تأليف البدن. فمن يقول
إن التأليف هو النفس بمنزلة من يقول إن تأليف الأوتار هو الموسيقار
ومن يقول إن العناصر هي التي ألقت نفسها بمنزلة من يقول إن
الأوتار هي التي ألقت نفسها.

وأما النفس فكمال لجسم طبيعي ذي حياة بالقوة، أي هي مكملة

(١) نفس المرجع ص ٢٣٥.

له ومتممة له^(١).

ويقول أفلوطين في كتاب «أثولوجيا» أيضًا:

«... والنفس معبر بين الحسّ والعقل: مرة تلسّطف الأشياء الحسّية حتى تصيرها كأنها عقلية فينالها العقل، ومرة تجسّم الأشياء العقلية فينالها الحسّ.

«النفس الإنسانية لها معرفة الخير ذاتٌ جوهرية، ولها معرفة الشرّ والتفرقة بينه وبين الخير لاتصالها بهذا الجسد، فحصل لها شرف العالين وحصول الكالين. وهي وإن كانت غريقة في بحر الهيمولي ومغلوبة بسطان الحسّ ومنغولة في سجن الطبيعة، فإن نور العقل واصلٌ إليها دائم الفيض عليها، ليس منقطعًا عنها، ولا مستورًا منها ولا عجوبيًا، لكنها هي التي ربما احتجبت بقميص الهيمولي. وأما اتصالها بالعالم العقلي فجوهري لها، ذاتٌ فيها، لا ينفك عنها أبدًا.

إلى أن يقول:

«... والنفس الناطقة متاخمة للعالم العقلي والعالم الحسّي. وهي موضوعة بينهما. ولما كان من الواجب أن تفيض النفس قوتها على العالم الحسّي وأن تزينة، لم تكف أن زينت ظاهره حتى غاصت في باطنه فآثرت فيه من القوى والكليات الفاعلة ما يتحير فيه الفكر

(١) انظر «أفلوطين عند العرب» للدكتور عبد الرحمن بدوي، الطبعة الثانية

ويكَلِّ عن وصفه النطق، وهي سارية في باطنه، ومن هناك تظهر أفعالها وعماستها، ومن الباطن تظهر الألوان الأنيقة والأشكال العجيبة والهيئات الغريبة والأفعال البديعة والحركة اللطيفة. وإذا هي تركت الباطن تدعى الظاهر بالفساد، والجملة بالخراب.

«الفضائل في النفس تغلى غلياناً وتفور لتراكمها وتطلب الانبعاث والخروج، فلذلك أفاضت قواها على العالم الحسي فظهرت منه المعارف وأصناف النيات والحيوان، حتى وصل الأمر إلى الإنسان فظهر فيه ومنه البدائع العجيبة، فكانت النفس بغليان فضائلها كالحامل تتمخض للولادة. وكذلك كانت حال العقل حتى ظهرت منه النفس»^(١)

ويقول أفلوطين أيضاً في الميمر السابع من كتاب «أثولوجيا» في فصل بعنوان «في النفس الشريفة»: ^(٢)

«ونقول إن النفس الشريفة السيدة، وإن كانت تركت عالمها العالي وهبطت إلى هذا العالم السفلي، فإنها فعلت ذلك بنسوع استطاعتها وقوتها العالية لتصور الأنية التي بعدها ولتسديرها. وإن أفلتت من هذا العالم بعد تصويرها وتديرها إياه وصارت إلى عالمها

(١) نفس المرجع ص ٢١٥/٢١٦.

(٢) نفس المرجع ص ٨٤ وما بعدها.

سريعاً لم يضرها هبوطها إلى هذا العالم شيئاً بل انتفعت به، وذلك
أنها استفادت من هذا العالم معرفة الشيء وعلمت ما بطبيعته بعد أن
أفرغت عليه قواها وتراءت أعمالها وأفاعيلها الشريفة الساكنة التي
كانت فيها وهي في العالم العقلي. فلولا أنها أظهرت أفاعيلها وأفرغت
قواها وصيرتها واقعة تحت الإبصار، لكانت تلك القوى والأفاعيل فيها
باطلاً ولكانت النفس تنسى الفضائل والأفعال المحكمة المتقنة إذ كانت
خفية لا تظهر. ولو كان هذا هكذا لما عرفت قوة النفس ولما عرفت
شرفها، وذلك أن الفعل إنما هو إعلان القوة الخفية بظهورها. ولو
خفيت قوة النفس ولم تظهر، لفسدت ولكانت كأنها لم تكن البتة.
والدليل على أن هذا هكذا: الخليفة، فإنها لما صارت حسب
هيئة كثيرة الوشى متقنة واقعة تحت الأبصار صار الناظر إليها إذا كان
عاقلاً لم يعجب من زخرف ظاهرها، بل ينظر إلى باطنها فيعجب من
بارئها ومبدعها فلا شك أنه في غاية الحسن والبهاء لا نهاية لقوته إذ
فعل مثل هذه الأفاعيل الممتلئة حسناً وجمالاً وكمالاً. فلو أن الباري
- عز وجل - لم يبدع الأشياء وكان وحده فقط لخفيت الأشياء ولم
يكن حسنها وبهاؤها ظاهراً بيناً. ولو أن تلك الآنية الواحدة وقفت
في ذاتها وأمسكت قوتها وفعلها ونورها لما كان شيء من الأشياء من
الآنيات الباقية ولا من الآنيات المستحيلة الدائرة - مسجوداً، ولما
كانت كثرة الأشياء المبتدعة من الواحد على ما هي عليه الآن، ولما
كانت العلل تخرج معلولاتها ولا تُسليكنها مسالك الكون والآنيات.

فإذا لم تكن الأشياء الدائمة والأشياء الدائرة الواقعة تحت السكون والفساد موجودة، لم يكن الواحد الأول علّة حقًا. وكيف يمكن أن لا تكون الأشياء موجودة، وعلتها علّة حقًا، ونورًا حقًا، وخيرًا حقًا.

فإن كان الواحد الأول كذلك، أي علّة حقًا، فإن معلومًا معلول حق. وإن كان نورًا حقًا فقابل ذلك النور قابل حق. فإذا كان خيرًا حقًا، والخير يفيض، فالفائض عليه حق أيضًا. فإن كان هذا هكذا ولم يكن من الواجب أن يكون الباري وحده ولا يخلق شيئًا شريفًا قابلاً لنوره، أي «العقل» - كذلك لم يكن من الواجب أن يكون العقل وحده، ولا يصور شيئًا قابلاً لفعله وقوته الشريفة ونوره الساطع، فصور لذلك «النفس». وكذلك لم يكن ينبغي أن تكون النفس في ذلك العالم الأعلى العقلي وحدها ولا يكون شيء قابل لآثارها، فمن أجل ذلك هبطت إلى العالم السفلي لتُظهر أفعالها وقوتها الكريمة. وهذا لازم لكل طبيعة. أن تفعل أفعالها وتؤثر في الشيء الذي يكون تحتها وأن يكون الشيء ينفعل ويقبل الآثار من الشيء الذي يليه علوًا، وذلك أن الشيء الأعلى يؤثر في الشيء الذي هو أسفل، وليس شيء من الأشياء العقلية ولا الطبيعية يقف في ذاته ولا يسلك مسلك الفعل إلا أن يكون الشيء آخر الأشياء ضعفًا لا يكاد فعله يتبين...

إلى أن يقول :

« .. فإن كان هذا هكذا، قلنا إن النفس تفيض قوتها على هذا العالم كله بقوته العالية الشريفة، وليس شيء من الأشياء الجرمية المتحركة وغير المتحركة يعادم لقوة النفس ولا يخرج من طبيعتها الخير. وإنما ينال كل جرم من الأجرام من قوتها وخيرها على نحو قوته لقبول تلك القوة وذلك الخير. فنقول: إن أول أثر تؤثره النفس إنما تؤثره في الهيولى لأنها أول الأشياء الحسية. فلما كانت أول الأشياء الحسية استوجبت أن تنال الخير من النفس أولاً، وإنما أعنى بالخير الصورة، ثم ينال بعد ذلك كل واحد من الأشياء الحسية من ذلك الخير على نحو قوته لقبول ذلك الخير.

« ونقول: الطبيعة ضربان: عقلية وحسية. والنفس إذا كانت في العالم العقلي كانت أفضل وأشرف، وإن كانت في العالم السفلي كانت أخس وأدنى من أجل الجسم الذي صارت فيه. والنفس، وإن كانت عقلية ومن العالم العقلي، فلا بد لها أن تنال من العالم الحسي شيئاً وتصير فيه لأن طبيعتها متلاحمة للعالم العقلي والعالم الحسي. فلا ينبغي أن تدم النفس ولا تلام على ترك العالم العقلي وكونتها في هذا العالم لأنها موضوعة بين العالمين جميعاً. وإنما صارت النفس على هذه الحال لأنها، وإن كانت جوهراً من تلك الجواهر الشريفة الإلهية، فإنها آخر تلك الجواهر وأول الجواهر الطبيعية الحسية. فلما صارت مجاورة للعالم الطبيعي الحسي لم يكن في السواجب أن تمسك عنه فضائلها ولا تفيضها عليه.

فلذلك قاضت عليه قواها وزينته بغاية الزينة، وربما نالت من
خساسته، وذلك إلا أن تحذر وتحرز من أن يشوبها شيء من حالاته
الدنية المذمومة.



والى هنا نكتفى بهذا القدر الضئيل من أقوال أفلوطين في
النفس، وما أكثر ما قال عنها سواء في «تساعات» أو في كتاب
«أثولوجيا» وما دعنا قد نوّهنا بهذا الكتاب فمن المفيد أن نذكر أن
نص «أثولوجيا» ويتألف من عشرة ميامر تتفاوت في الطول وفي داخل
بعضها عنوانات فرعية، فهو مجموع مؤلف من مستخلصات أو ترجمة
موسّعة لفصول ومحاضرات شفوية ألقاها أفلوطين وسجلها تلميذه
«أمليوس» قبل أن يحرر «فرفوربوس» نص «التساعات». ولقد تبين
من عدة تحقيقات علمية قام بها عديد من المحققين والباحثين الثقات
أن كتاب «أثولوجيا» ما هو إلا تلخيص لبعض «تساعات» أفلوطين
وبالأخص التساعات: الرابع والخامس والسادس. حتى لنجد فيه
أحياناً فقرات أخذت بنصّها من «التساعات».

ولقد نسب هذا الكتاب المشهور «أثولوجيا» إلى أرسطوطاليس
وطبع لأول مرة في مستهل القرن السادس عشر في ترجمة لاتينية قامت
على ترجمة عربية ترجع إلى القرن التاسع تبدأ بهذه العبارة: «كتاب
أرسطوطاليس الفيلسوف، المسمّى باليونانية أثولوجيا وهو القول على

الريوية، تفسير لرفورديوس السوري، ونقله إلى العربية عبد المسيح بن عبد الله بن ناعمة الحمصي، وأصلحه لأحمد بن المعتصم بالله أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندي.

ويطيب لنا أن نحيل القارئ الكريم الذي يصبر إلى مزيد من
- ١١ - كتاب «أفلوطين عند العرب» للدكتور عبد الرحمن بدوي
باحث عن الحقيقة.

خلود النفس عند القدماء

كان المصريون منذ أقدم العصور يعتقدون أن للإنسان روحًا، وأن هذا الروح لا يموت بموت الجسد، بل يحيا بعد ذلك حياة أخرى. وكانوا لا يرون في الموت إلا تبديل الحياة. والإنسان عندهم كان يعيش تحت الأرض كما كان عائشًا عليها. ولئن كان الجسد يخمد فإن مثاله الكامل يحيا بعده. وكانت تقوم حياة المثال أو الشبيه بالمحافظة على الجسد أو الهيكل الأصلي. ولقد كان اعتقادهم هذا هو السبب الأول في أنهم عنوا عنايتهم الكبيرة ببناء القبور المتينة، وتشيد الأهرام الضخمة، وتحنيط الجثة، والإكثار من التماثيل الحجرية مع الميت في قبره.

وبعد أن كانوا يحنطون الجثة كانوا يودعونها مقبرة تختلف زينتها باختلاف مقام الميت. وكانوا يسلّون مدخل المقبرة بقطع من الصخر ضخمة ضناً بكرامة الميت أن يمسه رجس.

وقد كان الغرض الأول من هذا كله حفظ الجنة من الفناء لكي يجدها الروح كلها دخل عليها القبر، فإذا تعفنت مع ذلك وأكلها اليبس فالتمثال يقوم مقامها، وإليه يرتاح الروح. وقد يفنى تمثال ويبقى آخره؛ ولهذا استكثروا من التماثيل في القبور، حتى إذا فنى بعضها بقى البعض الآخر.

ومن الأمور المتناقضة التي لم يخطر على بال المصريين كشف الثياب عنها أن النفس لم تكن تقيم مع المثل بل كانت تفارقه لتمثل بحضرة أوزيريس وقضاة الجحيم الاثني والأربعين، حيث كانت توزن أعمالها في ميزان الحقيقة والعدل الذي لا يزل فالنفس المذنبة كانت تسقط في الجحيم حيث تفتتات وتشرب من المواد الدنيئة وتسطاردها العقارب والحيات. وحيث تلقى الموت بعد احتمال العذاب ألواناً. أما نفس البار فكانت تتمتع بالغبطة بعد التجارب العديدة وتصير رفيقة «أوزيريس» ينبوع الرحمة الذي يقدم لها أشهى الأطعمة^(١).

إذن فقد كان المصريون القدماء يعتقدون أن الإنسان لا يموت بموت الجسم. وأنه كان يحيا بعد موته حياة أخرى يحاسب فيها على أعماله في الحياة الدنيا، وتوزن فيها حسناته وسيئاته، فمن رجحت حسناته استحق الثواب، ومن رجحت سيئاته استحق العقاب.

(١) انظر كتاب «عل هامش التاريخ المصري القديم» للأستاذ عبد القادر حمزة، وانظر كذلك كتاب «النتج القديم في تاريخ شعوب الشرق القديم» ص ٢٢٦/٢٢٥.

ولكن ماذا كانوا يفهمون من الثواب والعقاب؟
وكيف كانوا يتخيلون دار النعيم في الحياة الأخرى لسلائقياء
الصالحين، ودار العذاب للأشرار المفسدين؟..

محاكمة النفس عند القدماء:

روى ديودور الصقلي^(١) فيما رواه عن محاكمة الأموات في مصر،
أن المصريين كانوا كلما مات لهم ميت أبلغوا موته ويوم دفنه لأقاربه
ومعارفه ولقضاة مكلفين أن يحاكموه. فإذا جاء يوم الدفن حملت
الجثة في قاربٍ يجتاز بها بحيرة، وجلس القضاة والمعارف يتشظرونها
عند الشاطئ الثاني، فإذا وصلت إلى المرسى أبيع لكل مدّع على
الميت أن يتقدم للقضاة بدعواه، فإذا ثبت أن الميت أساء في حياته
حكم القضاة بحرمان جثته من مدفنه. أما إذا لم يتقدم أحد أو إذا
ثبت أن المدّعي كاذب فأهل الميت يخلعون حدادهم ويشنون على
ميتهم، فيجيب الجمهور بالتصفيق وتتمنى للميت الخلود مع الأبرار.
والعقاب الذي ينزله القضاة بكل مدّع كاذب في هذه الحالة عقاب
شديد رادع.

(١) ديودور الصقلي: (توفي بعد ٢٦ ق.م.) مؤرخ إغريقي، ولد بصقلية. زار
مصر بين سنة ٦٠ وسنة ٥٧ ق. م. ألف بالإغريقية كتابًا في تاريخ العالم، يقع في
٤٠ مجلدًا، وينتهي بالحروب الفالية. وصلنا منه الأجزاء (١ - ٤ و ١١ - ٢٠).
ووضع عن مصر كتابًا وصفيًا.

هكذا روى ديودور، وهو مخطئ، وقد التبس عليه الأمر، فأخذ ما كان المصريون يعتقدونه حساباً يؤدبه الميت في الحياة الأخرى أمام قضاة من الآلهة، على أنه حساب يؤدبه أمام قضاة من الأحياء قبل أن يدفن. لما كتبه ديودور في هذا يجب أن يضاف إلى الأشياء الكثيرة التي أخطأ المؤرخون اليونانيون والرومانيون فهمها في ما كتبه عن المصريين. ولكن خطأ ديودور لا يمنع من أن في روايته حقيقة بارزة هي أن المصريين كانوا يعتقدون أن الميت محاسب بعد موته على سيئاته وحسناته، معاقب على الأولى، مثاب على الثانية.

وقد راجت هذه العقيدة، وراجت معها عبادة «أوزيريس» في زمن الدولة الوسطى، ثم راجت أكثر في زمن الدولة الحديثة؛ لأن كل أحد صار يرجو أن يكون مثل أوزيريس في الحياة الأخرى. وكان أوزيريس قد نشأ في مدينة بوزريس (وهي الآن أبو صير بمسديرة الغربية)، فانتقل إلى مدينة أييدوس (وهي الآن العسابة المدفونة بمديرة جرجا)، فاعتبرت عاصمة له ومدينة مقدسة يرغب الملوك والأمراء وقواد الجيش والأعيان وغيرهم من سواد الأمة في أن يدفنوا فيها للتبرك بترابها، فإذا لم يجدوا أرضاً لهذا الغرض اكتفوا بأن يقيموا لأنفسهم في مقبرتها لوحة تذكارية من الألواح الحجرية التي تقام على القبور.

وفيا بين الدولة الوسطى والدول الحديثة أخذ يتشر ما سُمي «بكتاب الموتى» حتى صار من العادات المرعية أن توضع نسخة منه

مع كل ميت. وهذا الكتاب يشتمل على فصول مختلفة بعضها في خلق الكون، وبعضها في بيان الأخطار التي تستهدف لها الميت بعد موته، وبعضها تعاويذ سحرية كان الذين وضعوها يزعمون أنها تنفع الميت وتنقذه من الأخطار، وبعضها - وهو ما يهمنا في موضوعنا هذا - في محاسبة الميت على أعماله في الدنيا أمام محكمة أوزيريس.

وكانوا يجسمون هذه المحاسبة فيضعون لها في كتاب الموتى، وعلى التوابيت، رسم محكمة ومحكمة وميزان. وفي هذه المحكمة يجلس أوزيريس على عرشه حاملاً عصاه وكريسيه، ومعه اثنتان وأربعون قاضياً من الآلهة. ويلاحظ هنا أن مصر كانت مقسمة إلى اثنتين وأربعين إقليمياً فكان كل من القضاة يمثل إقليمياً من هذه الأقاليم. فإذا جرى بالميت تسلمه أنوبيس^(١) وأخذ قلبه فوضعه في إحدى كفتي ميزان، ووضع في الكفة الأخرى تمثال الآلهة معات (إلهة الحقيقة والعدل) أو ريشتها، ثم وقف الإله توت^(٢) بجانب الميزان وفي يده اليمنى قلم وفي يده اليسرى سجل يلدون فيه نتيجة الميزان، ثم يرفعها إلى أوزيريس. ويقف بالقرب من توت الوحش «أماييت» وهو وحش

(١) أنوبيس: هو مدير دفن الأموات ودليلهم في الدار الآخرة.

(٢) توت أو تحوت: هو المعروف عند اليونانيين باسم هرمس. وكان المصريون يزعمون أنه هو الذي علمهم الكتابة والقوانين والحكمة وجميع المعارف. وهو الذي يقيد وزن قلب الميت في محكمة أوزيريس ويقدم تقارير عن أعمال الميت إلى قضاة المحكمة. وهو المعبود الأكبر في مدينة هرموبوليس أو اللاهونين.

له رأس تمساح وجسم أسد، متأهباً لأن يلتهم الميت الذى يصدر الحكم بالتهامه. وفي بعض الرسوم تضاف نيران إلى المحكمة في مكان خاص منها، ليلق فيها المذنبون. والقلب في الميزان يمثل أعمال الميت في حياته. وهو الذى يشهد بكل ما فعله صاحبه من خير أو شر^(١).



وكتاب الموت يدلنا على نوع الأعمال التى كان الميت يحاسب عليها أمام أوزيريس، فقد وجد في هذا الكتاب تصرّح من الميت إلى قلبه حينما يؤخذ منه ليوضع في الميزان. وهو يقول فيه :

«أيها القلب الذى أخلته من أمي، وولدت به، وعشت معه على الأرض، لا تشهد عليّ. لا تكن خصمى أمام القوى المقنّمة. لا تكن ثقيل الوزن ضدى».

ثم وجد في كتاب الموت أيضاً دفاع يدافع به الميت عن نفسه حينما يأخذ أنوبيس في وزن أعماله. وهو دفاع فيه معان سامية من معاني الأخلاق الفاضلة المتأثرة بعقيدة الحساب بعد الموت. في هذا الدفاع يقول الميت كلمات تقديس يوجهها إلى أوزيريس والقضاة الذين معه :^(٢)

(١) انظر على هامش التاريخ للصوى القديم، للأستاذ عبد القادر حسنة. (كتاب الشعب رقم ١١) ١٩٥٧ ص ٥٣ - ٥٥.

(٢) هذا السندع مترجم عن كتاب (Le Nil et la Civilisation Egy.) ص ٤٦٥ مؤلفه موري. وقد قال موري إن هذا النصّ تلخيص وليس ترجمة حرفية، =

«لقد جئت إليك أجلب الحقيقة وأطرد الخطيئة.. إني لم أقارف
لشر، ولم أعتد، ولم أسرق، ولم أقتل غدرًا، ولم أسس القرايين، ولم
أكذب، ولم أرسل دموع أحد، ولم أتدنس، ولم أذبح الحيوانات
المقدسة، ولم أتلف أرضًا مزروعة، ولم أقذف، ولم أتترك الغضب
يخرجني إلى غير الحق، ولم أزن، ولم أرفض أن أسمع كلمة العدل،
ولم أسئ الظن بالملك ولا بأبي، ولم ألوث الماء، ولم أحل سيدًا على
أن يسئ إلى عبده، ولم أحلف كاذبًا، ولم أغش في الميزان، ولم أمتنع
اللبن عن أفواه الرضع، ولم أصد طيور الآلهة، ولم أرد ماء حين
الحاجة إليه، ولم أسد قناة رى على غيري، ولم أطفئ نازًا يجب أن
تشعل، ولم يحظر على بالي أن استخف بالآلهة، إنسى طاهر،
طاهر»^(١)

= ويوجد في كتاب (La Religion des Égyptiens) ص ٢٦٤ و ٢٦٥ مؤلفه أرماني
نصر ياتله ولا يختلف عنه إلا قليلاً.

(١) عما يستحق الملاحظة هنا أن هذه السيئات التي يتبرأ منها الميت تنقسم إلى
أنواع. فنوع منها خاص بالآلهة وهو من القرايين، وذبح الحيوانات المقدسة، وصيد
طيور الآلهة، والاستخفاف بالآلهة. ونوع خاص بالملك وبالآب وهو سوء الظن بهما.
ونوع خاص بالسلوك مع الناس وهو مقارفة الشر، والاعتداء، والسرقة، والقتل
غدرًا، وإسالة الدموع، وإتلاف الأرض المزروعة، والقذف، والزنا، والامتناع عن
سماع كلمة العدل، وتلوث الماء، وحل السيد على أن يسئ إلى عبده، والقش في
الميزان، ومنع اللبن عن أفواه الرضع، ورد الماء حين الحاجة إليه، وسد قناة الري
على الغير، وإطفاء النار التي يجب أن تشعل. وهناك نوع خاص بتهديب النفس =

وهذا الدفاع يسميه شامبليون «دفاعاً إنكارياً» لأن الميت يعزو فيه لنفسه الخسرات والفضائل في صورة إنكار للسيئات والردائل.

ثم يخاطب الميت القضاة الاثني والأربعين فيقول: ^(١)

«لكم الحمد أيها القضاة. إنني أعرفكم وأعرف أسماءكم. لست أسقط أمام أسلحتكم. إنكم لا تعلنون شيئاً ضدي هذا الإله الذي أنتم حاشيته. لا شأن لكم بي. إنكم تقولون الحقيقة في أمرى أمام سيد كل شيء؛ لأنني اتبعت الحق والعدل في مصر. ولم أجد في حق الإله، ولم يجد الملك المعاصر لي شيئاً يأخذه علي. لكم الحمد أيها الآلهة الجالسون في قاعة الحقيقتين ^(٢)، والذين ليس فيهم أثر من كذب، وهم يعيشون من الحقيقة أمام حوريس المستقر في شمس. أنقذوني من «باباي» ^(٣) الذي يأكل أحشاء العظاء في يوم الحساب

« قبل أن يكون خاصاً بالغير وهو التندس، وترك الغضب يخرج الإنسان إلى غير الحق، والكذب، والخلف كذباً، ويختم الميت دفاعه بكلمة هي جماع الفضائل النسبية وهي قوله: «إنني طاهر، طاهر».

(١) هذا الخطاب مترجم عن كتاب (La Religion des Egy.) ص ٢٦٦/٢٦٧ مؤلفه أرمان.

(٢) المراد بالحقيقتين: حقيقة للموجه القبلي، وحقيقة للموجه البحري. وكانت بحكمة أوزيريس تسمى قاعة الحقيقتين.

(٣) فسر أرمان كلمة «باباي» هذه فقال: إن المراد منها رفيق لإله الشر بيت أو بيت نفسه.

الكبير. هاكم انظروا : إننى أت إليكم بلا خطيئة ولا سوء. وقد فعلت ما يرضى الناس والآهة. وأرضيت الإله بما يحبّه. وقد أعطيت خبزًا للجائع، وماءً للعطشان، وثيابًا للمعاري، وزورقًا لمن ليس له مركب. وقد قدّمت قرابين للآهة، وهدايا جنازية للممجدين^(١).

« أنقذون واحفظون، إنكم لا تنهوننى أمام الإله العظيم. إننى رجل ذو فم طاهر، ويدين طاهرتين، والذين يعرفوننى يقولون لى : مرحبًا بقدمك، مرحبًا بقدمك»^(٢).

فذلك الدفاع الإنكارى الذى يدافع به الميت عن نفسه، وهذا الخطاب الذى يوجهه الميت إلى القضاة، هما نتيجة مباشرة لعقيدة الحساب، وفيها الدليل القاطع على أن الميت يتقدم إلى الحساب وهو ممتلئ خوفًا من أن تكون أعماله فى الدنيا مؤذية به إلى العقاب. ومن هذا الخوف تكون عقيدة الحساب أساس عمل الخير، وتهذيب النفس، والاستقامة فى معاملة الغير^(٣).

(١) المجدون هم الأموات الذين كانوا صالحين فى الدنيا وينالون هذه المنزلة فى الآخرة.

(٢) فى هذا الخطاب فضائل دينية وأخلاقية غير التى مسرت فى الدفاع الإنكارى. وهذا يدلّ على أن هذا الدفاع الإنكارى لم يجمع كل ما كان المصريين يعتبرونه فضيلة وتهذيبًا نفسيًا.

(٣) يحمل بالقارى إذا أراد المزيد من عقيدة الحساب بعد الموت ومحاسبة النفس، أن يرجع إلى كتاب «هل هلش التاريخ المصرى القديم» ص ٦٨/٥١.

ويقول الدكتور سيد عويس الخبير الأول بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية - في كتابه «الخلسود في السترات القسافية المصرى»^(١)، إن ثمة ثلاث روايات مختلفة عن الحساب في الآخرة عثر عليها في أتم اللقائف البردية وأحسنها التي وصلت إلينا للآن. وكانت هذه الروايات، في الأصل، بلا شك، مستقلة بعضها عن البعض الآخر.

وتبتدئ الرواية الأولى هكذا: «فصل في دخول قاعة الصدق (الحق)» وهي تحتوي على ما يقوله المتوفى عند الوصول إلى قاعة الصدق، عندما يظهر فلان (يعنى المتوفى) من كل الذنوب التي اقترفها. ثم يوجه نظره إلى وجه الإله ويقول: «سلام عليك أيها الإله العظيم ربّ الصدق، لقد أتيت إليك يا إلهي وجرء يا إلهي هنا حتى أرى جمالك. إنى أعرف اسمك، وأعرف أسماء الأثنين والأربعين إلهما الذين معك في قاعة الصدق هذه وهم الذين يعيشون على الخطائين، ويلتهمون دماءهم في ذلك اليوم الذي تمتحن فيه الأخلاق أمام «ونفر» (أوزيريس) ثم يأخذ المتوفى بعد ذلك يعدد الخطايا التي لم يرتكبها فيقول:

(١) عن صفحات ٧٦/٧٢ من «فجر الضمير» لجيمس هنرى برستد ترجمة سليم حسن ص ٢٧١/٢٧٩. انظر أيضًا: «المظاهر الحضارية» لسليم حسن ص ٢٢٧/٢٣١، و«مصر والحياة المصرية في العصور القديمة» لأدولف أرمان وهرمان رانكه ص ٢٢٧.

« انظر .. لقد أتيت إليك . إن أحضر العدالة إليك ، وأقصى الخطيئة عنك . إن لم ارتكب ضدَّ الناس أية خطيئة .. إن في مكان الصديق هذا لم أت ذنباً ولم أعرف أية خطيئة . ولم ارتكب أى شيء عبيث . وإن لم أفعل ما يمقته الإله وإن لم أبلغ ضدَّ خادم شراً إلى سيده . وإن لم أترك أحداً يتضور جوعاً ولم أتسبب في إسكاء أى إنسان . وإن لم ارتكب القتل ، ولم أمر بالقتل . وإن لم أسبب تعسفاً لأى إنسان . وإن لم أنقص طعاماً في المعابد . وإن لم أنقص قربان الآلهة . وإن لم أغتصب طعاماً من قربان الموت . وإن لم ارتكب الزنى . ولم ارتكب خطيئة تدنس نفسى في داخل حدود بلدة الإله الطاهرة . ولم أخسر مكيال الحبوب . ولم أنقص المقياس . ولم أنقص مكيال الأرض . ولم أنقل وزن الميزان . ولم أحول لسان كفتى الميزان . ولم اغتصب لبناً من فم طفل . ولم أطرد المائتية من مراعيها . ولم أنصب الشباك لطيور الآلهة . ولم أتصيد السمك من بحيراتهم (أى الآلهة) . ولم أمنع المياه عن أوقاتها . ولم أضع سدّاً للمياه الجارية . ولم أطفئ النار في وقتها (أى عند وقت نفعها) . ولم أستول على قطعان هبات المعبد . ولم أتدخل مع الإله في دخله . »

بعد هذه الاعترافات نتقل إلى منظر يمثل حساب المتوفى حيث نجد القاضى ، وهو «أوزيريس» ، يساعده الاثنان والأربعون إلهاً في محاسبة المتوفى . وهؤلاء شياطين خفيفة يحمل كل منهم اسماً بشعاً ، مثل أكل الظل الذى يخرج من الكهف ، وكاسر العظام الذى يخرج من

أهناسيا المدينة.. إلخ. وكان المتوفى يذهب إلى كل واحد من هؤلاء الخلوقات ويوجه إليه اعترافاً ببراءته من خطيئة معينة. وتتناول هذه الاعترافات، الاثنان والأربعون، كثيراً، من نفس موضوعات الإقرارات عن الخطايا التي لم يرتكبها المتوفى المذكور آنفاً.

ويذكر المتوفى بعد ذلك براءة نفسه أمام هيئة المحكمة العظمى كلها، بوجه عام، فيقول: «السلام عليكم أيها الآلهة. إن أعرفكم، وأعرف أسماءكم. وإن لم أسقط أمام أسلحتكم. لا تبلغوا عني شراً لذلك الإله الذي تتبعونه..» ثم يأخذ بعد ذلك في سرد مناقبه وأعماله الصالحة الدالة على خلقه العظيم.

أما الرواية الثالثة عن المحاكمة، فهي التي أثرت أعمق الأثر في نفس المصري، وهي أشبه بتمثيلية «أوزيريس» في العرابة المدفونة، إذ ترسم لنا المحاسبة الأخروية، كما حدث بالموازين. فنشاهد الإله أوزيريس جالساً فوق عرشه، في نهاية قاعة المحاكمة، وخلفه كل من الإلهتين «أيزيس ونفتيس». وقد اصطفّت على طول أحد جوانب القاعة الإلهة التسعة، وهم المعروفون بتاسوع عين شمس، يرأسهم «إله الشمس» وهم الذين ينطقون فيما بعد بالحكم. على أن ذلك المنظر الثالث من المحاكمة، كان في بدايته شمسي الأصل، وهو الذي يحتل فيه أوزيريس الآن المكان الأول فيشاهد في وسط المنظر موازين «رع» التي يزن بها الصدق، مطابقاً لما جاء في مذهب «رع». ولكن

المحاكمة التي ظهرت فيها تلك الموازين وقتئذ صارت أوزيرية الصيفة. حيث كانت الموازين في بسد الآله الجناسي ذي رأس ابن آوى «أنويس»، «فاتح الطرق» الذي يخرج من قاعة المحاكمة ليقود المتوفى، وهو ممسك بيده أمام «أوزيريس» وعند دخول المتوفى لا يتنطق أحد بكلمة. ويجلس ملك الموت على عرشه في مكان معتم، واضعًا التاج على رأسه ويمسك في إحدى يديه بعضًا، وفي الأخرى بمضرب الخنطة، فهو القاضي الأعلى للمتوفى. ومن أمامه يوضع الميزان العادل، حيث سيوزن عليه قلب الرجل المتوفى. ويقف «تحوت» كاتب الآلهة بجوار الميزان، وفي يده القلم والقرطاس حتى يسجل النتيجة. ويكون من بين الحاضرين كل من «حورس» والآلهة «ماعت» إله الحق والعدالة. ويوجد خلف «تحوت» حيوان بشع الهيئة يسمى الملتهم له رأس التمساح وصدر الأسد ومؤخرة فرس البحر، ويكون متحفزًا لالتهام الروح إذا وجدت ظلاله^(١). ويجلس القرفصاء حول القاعة الخفية الاثنان والأربعون مارداً، مستعدين لتزيق الشرير إربًا إربًا.

وحيث يسود السكون الرهيب، يبدأ الروح الزائر، مرة ثانية في ترتيل اعترافاته. ولا يعلق أوزيريس على ذلك بشيء. ثم يلاحظ

(١) لعل هذا الحيوان البشع أقرب ما يكون إلى «التنين» المذكور في صلاة المصريين المسيحيين على القبر حيث يقال: «ويضمحل حتى التنين». انظر كتاب التنجيز لحنا غبريال ص ٢١.

الروح وهو يرتعد خوفاً وهلعاً، الآلهة وهم يزنون في تروُّ قلبه في الميزان. بيتا تكون الآلهة «ماعت» إلهة الحق والعدالة أو رمزها، وهو ريشة نعام، موضوعة في كفة الميزان المقابلة.

ويضزع الروح مرتعداً إلى قلبه حتى لا يشهد ضدّه قاتلاً:
«يا قلب الذى كنت قلبى، لا تقل: لاحظ الأشياء التى فعلها،
اسمح لى بأن لا أظلم، فى حضرة الإله العظيم».

وإذا تبين أن القلب لم يكن لا ثقيلاً ولا خفيفاً، فإن المتوفى تبرأ ساحته وعندئذ يسجل «نحوت» حكم المحكمة ببراءته، ويعرض النتيجة على أوزيريس الذى يعطى الأوامر لكى يعود القلب إلى المتوفى المقدم للمحاكمة. ثم يهتف ملك الموت قاتلاً: «إنه فاز بالنصر، دعوه الآن يسكن مع الأرواح ومع الآلهة فى حقول السعادة».

ويذهب المتوفى، بعد إطلاق سراحه وهو فرحان ليتطلع إلى عجائب العالم السفلى. فالمملكة المقدسة أعظم من مصر وأفخم، حيث تعمل الأرواح وتصيد وتحارب الأعداء. وحيث تكون لسكل امرئ حصته من الواجبات فجب عليه أن يفلح الأرض، وأن يحصد الحب الذى ينمو بوفرة وبارتفاع شاهق. وحيث المحصول لا يخيب أبداً. وحيث تكون المجاعة والأحزان والأكدار غير معروفة.

وإذا رغبت الروح فى العودة إلى زيارة المناظر المألوفة على وجه الأرض، فإنها تدخل جسم طائر أو جسم حيوان، أو ربما تنصر فى

زهرة. وربما رغبت الروح في زيارة قبرها في شكل «الباء» فتحبس المومية، وتتطلع إلى المناظر التي كانت ملكوفة وعزيزة في الأيام السالفة.

أما أرواح الموتى التي يدينها أوزيريس بسبب الذنوب التي اقترفتها على وجه الأرض، فهي عرضة للعذاب المريع قبل أن يبسطها المردة الذين يجلسون القرفصاء متعظرين في قاعة المحاكمة السرية، الصامتة^(١).

(١) انظر «فجر السمير» ص ٢٧٩/٢٧٦. و«الظلمة الحضارية» ص ٢٣١/٢٢٧ و«عصر والحياة المصرية» ص ٣٢٩/٣٢٨.

عند فلاسفة العرب

لقد ذهب فلاسفة الإسلام ومفكرو العرب من أمثال الفارابي، وابن سينا، وابن مسكويه، والغزالي، في النفس مذاهب شتى... ونرى من تعريفهم للنفس أنهم أخذوا عن أرسطو آراءه وحوّروها واتجهوا بها اتجاهاً أفلاطونياً، ملوناً بالأفلاطونية المحدثة..

فالفارابي^(١) يرى أن الإنسان مؤلف من عنصرين أو جوهرين.

(١) هو أبو نصر محمد بن طرخان أوزلغ الفارابي، ولد في مدينة الفاراب من أعمال خراسان حوال سنة ٢٥٩هـ. وتوفي في مدينة دمشق سنة ٣٢٩هـ. عن ٨٠ سنة. وبعد الفارابي من أفضل شراح العرب لمنطق أرسطو، وقد تتلمذ الرئيس ابن سينا على كتبه. وكان الفارابي في أول أمره ناطقاً في بستان بدمشق، وكان يشتغل بالحكمة في الليل على ضوء قنديل حارس البستان. وقد تلى على بعض علماء المسيحية في عصره ومنهم يوحنا بن حيلان في أيام المقتدر، فأخذ عنه المنطق فبرع فيه واستمر كذلك مدة حتى عظم شأنه وعلت منزله عند الأمير سيف السلطنة»

أحدهما من عالم الحسّ والآخر من عالم الأمر، «أنت مركب من
جوهريين: أحدهما مشكل مصوّر مكيف مقدّر متحرك وساكن، متحير
منقسم، والثاني مبين للأول في هذه الصفات، غير مشارك له في
حقيقة الذات. يناله العقل، ويعرض عنه الوهم. فقد جمعت من
عالم الخلق، ومن عالم الأمر؛ لأن روحك من أمر ربك، وبدنك من
خلق ربك»^(١).

كذلك نجده يقول: «إن الروح الذي لك من جوهر عالم الأمر
ولا يتعين بإشارة، ولا يتردد بين سكون وحركة؛ فلذلك تدرك المعلوم
الذي فات، والمنتظر الذي هو آت، وتسيح في عالم الملكوت،
وتتقش من خاتم الجبروت».

ولقد حاول الفارابي التوفيق بين كل من تعريف أفلاطون وأرسطو
للنفس في كتاب أسماء الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون
وأرسطوطاليس. فمن جهة يقول كأرسطو: إن النفس صورة للبدن،

«التغلي وللفارابي مؤلفات عديدة منها: «شرح كتاب المصطفى لبطليموس» وأكثر كتب
أرسطو كما شرح رسالة زينون ولصوص الحكم... ومن مؤلفاته: كتاب السياسة
المدنية، و«عيون المسائل» وكتاب «المدنية الفاضلة» و«الطيرة المرضية» وكتاب
الموسيقى والمبادئ الإنسانية وتحصيل السعادة، وإحصاء العلوم. ويمكن «ابن خلكان»
عنه أن الآلة الموسيقية للسياة به القاتون» إنما هي من وضعه. وقد أطلق عليه
المسلمون «المعلم الثاني» كما أطلق على «أرسطو» المعلم الأول».

(١) عن كتاب «الطيرة المرضية» للفارابي ص ٧١.

ومن جانب آخر يقول : « إن النفس العاقلة هي جوهر الإنسان عند التحقيق، وإنما لا تفنى بفناء الجسم، وأن المعرفة الحقة هي سبيل الصعود إلى العالم العلوي ».

ويقول أيضاً : « إن للنفس بعد الموت سعادات وشقاوات، وأن السعادة ليست إلا أن تتحرر النفس من القيود المادية، فتصير عقلاً كاملاً ».

ويقول الفارابي كذلك : « إن النفس الناطقة^(١) التي لها هذه القوة (أي الإدراك) جوهر واحد هو الإنسان عند التحقيق ولسه فسروع، وقوى منبئة^(٢) منها في الأعضاء. وأنها حادثة عن واهب الصور عند حدوث الشيء المستعد لقبوله فيه، وهو البدن أو ما في قسوته أن يكون بدنًا. وإن النفس لا يجوز أن تكون موجودة قبل وجود البدن، وإنما لا يجوز أن تتكرر في أبدان مختلفة، وإنه لا يجوز أن يكون لبدن واحد نفسان، وإنما مفارقة^(٣) باقية بعد الموت، فليس فيها قوة قبول الفساد^(٤) ».

(١) الناطقة : العاقلة.

(٢) منبئة : توجد موزعة.

(٣) مفارقة : مستقلة عن المادة.

(٤) الفساد : الفناء.

حديث الرازي عن النفس :

يقول الإمام فخر الدين الرازي^(١) في كتابه «مفاتيح الغيب» إن من النفوس البشرية ما يستعين بالأرواح الأرضية، وأن اتصال النفس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية، وإن كانت القوة الحاصلة للنفس بسبب اتصالها بهذه الأرواح الأرضية أضعف من القوة الحاصلة لها بسبب اتصالها بتلك الأرواح السماوية، فإن النفوس الناطقة إذا صارت صافية عن الكلورات البدنية صارت قابلة للأنوار الفائضة من الأرواح السماوية والنفوس الفلكية، فتقوى هذه النفوس بأنوار تلك الأرواح، وتقدر على أمور غريبة خارقة للعادة، وأنها في هذه الحالة تكون مستعيلة على البدن شديدة الانجذاب إلى عالم السموات، كأنها روح من الأرواح السماوية، فكانت قوية على التأثير في مواد هذا العالم. أما إذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بالذائد

(١) فخر الدين أبو عبد الله محمد السرازي (١١٤٩ - ١٢٠٩) : متكلم، وفيلسوف، ارتبطت شهرته بتفسيره القرآن في كتابه «مفاتيح الغيب» الذي عرض فيه حصيلة ثقافته : كلامية، وفلسفية، ودينية، توفيقاً بين الدين والفلسفة. اشتغل بالتدريس ثم الوعظ وتلاوة القرآن. ومؤلفاته كثيرة منها الفلسفية مثل «شرح الإشارات والتنبيهات» و«المباحث المشرقية»، و«محصل أفكار المتكلمين والمتأخرين»، ومنها الفقهية مثل «أصول الشافعية» و«المعقول» و«منقب الإمام الشافعي».

تبدنية فلا يكون لها تصرف إلا في هذا البدن. وبعض الناس يحاول تعدى تأثيرها من بدنها إلى بدن آخر، أو إلى نفس أخرى غائبة عنها فيتخذون تمثال ذلك الغير أو شيئاً يضعه عند الحسن ويشغل الحسن به شغلاً تاماً فيتبعه الخيال، وتقبل النفس الناطقة عليه فتقوى التأثيرات النفسانية والتصرفات الروحانية. ولذلك أجمعت الأمم على أنه لا بد لمزاولة هذه الأعمال والوصول إلى غايتها من الانقطاع عن الملذوفات والمشتبهات وتقليل الغذاء، ومخالطة الخلق، وكلما كانت هذه الأمور أتم كان ذلك التأثير أقوى.

وإذا اتفق أن كان للنفس التي تزاول هذه الأعمال مناسبة لهذا الأمر نظرًا إلى ذاتها وخصائصها عظم التأثير، كما ذكروا نظيره في النفوس الصافية. وإذا كان بينها وبين بعض النفوس المفارقة لأبدانها مشابهة في قوتها وتأثيراتها لم يبعد أن تنجذب إليها، ويحصل لها نوع ما من التعلق بالبدن، فتعاقد نفسه على أفعاله الكثيرة، وكلما كملت المشابهة وازدادت القوة قوى التأثير.

وبالجمل، فالنفس الناطقة عرش محيط بعالم الطبيعة التي هي القوة الإلهية السارية في الأجسام كلها إحاطة شاملة كما أن المبادئ العالية محيطة بهما والله من ورائهم محيط.

فإذا نحت النفوس بمداركها وحركة فسكرها إلى جهة المحيط، واتصلت بالعالم العلوي كانت كأنها روح من أرواحه ومجلى من مجاليه،

يظهر فيه، وعنه من الخوارق كل ما أراد أن يظهره الفياض من طريقه، وإذا تنزلت إلى عالم الطبيعة واشتغلت بلذائذ البدن وشهواته لم يكن لها من الإدراك والتصرف إلا ما تسعه قواه الكونية الضعيفة^(١).

رأى ابن مسكويه في النفس :

كان ابن مسكويه^(٢) لا يفرق بين النفس والعقل، فإنه يراها واحدًا، ويرى أن الحسن إذا أخطأ بادرت النفس بتصحيح هذا الخطأ.. ويرى أيضا «أن النفس جوهر باق لا يقبل الموت ولا الفناء وستجزى على ما عملت في الدار الأخرى، إلا أن سعادتها وشقاءها اللذين سيحصلان لها بعد مفارقة البدن أمور روحية تناسب قوتها وجوهرها»^(٣).

ويقول ابن مسكويه في كتابه «تهذيب الأخلاق» في المقالة

(١) عن كتاب «المطلب القدسي في أحكام الروح وآثارها الكونية» للشيخ محمد حسين مخلوف. الطبعة الثانية ١٩٦٣ الحلبي، ص ٢٣٧ و ٢٣٨.

(٢) هو أبو علي أحمد بن محمد مسكويه من فلاسفة الإسلام الذين جمعوا بين ثقافة الإغريق وثقافة الإسلام. وضموا طرقًا من حكمة الروم والهند إلى حكمة العرب والفرس.

ولد بالري سنة ٥٣٣٠هـ. ومات بأصبهان عام ٥٤٢١هـ.

(٣) عن كتاب «الحياة الأخرى» للدكتور عبد الرزاق نوفل ص ٦٣.

الأولى : « النفس جوهر ليس بجسم، وأنه شيء آخر مفارق للجسم وهذا هو العقل. دليله على ذلك، أن النفس لا تستحيل ولا تتغير بخلاف الجسم وأجزائه وأعراضه. وبأنها تقبل صور الأشياء كلها على اختلافها من المحسوسات والمعقولات على التمام من غير زوال رسم، بل يبقى الرسم الأول تاماً، وتقبل الرسم الثاني أيضاً تاماً. ولا تزال تقبل صورة بعد صورة من غير أن تضعف^(١) بل تزداد الصورة الأولى قوة على ما يرد عليها من الصور الأخرى ».

ويقول: أما الجسم فلا يقبل نقشاً على كماله بعد نقش إلا إذا زال الأول كما يرى ذلك في الشمع مثلاً. ثم إن النفس ليست عرضاً معمولاً للجسم بل حاملة له أتم من حمل الأجسام للأعراض. بخلاف العرض فإنه معمول أبداً ولا يحمل عرضاً. وكذلك يحصل في النفس في قوتها الوهمية الطول والعرض والعمق وأي كيفية من كفيات الجسم كاللون والروائح فلا تصير بذلك جسماً ولا طويلة أو عريضة أو عميقة أو ذات لون ورائحة. وهي تقبل كفيات الأجسام المتضادة في حالة واحدة بالسواء. وإذا تخلت النفس عن الحواس بأكثر ما يمكن ازدادت قوة وكمالاً وظهرت فيها الآراء الصحيحة، أما الجسم فيزداد بمباشرة الشهوات والمحسوسات قوة وكمالاً لأنها أسباب وجوده ..

(١) لعله يقصد بهذا قوله تعالى ﴿لِي أرى صور ما شاء ربك﴾.

إلى أن يقول : وهذا أول دليل على أن جوهر النفس وطباعها غير جوهر الجسم وطباعه . وأيضاً فإن تشوقها إلى معرفة الأمور الإلهية وميلها إلى الأمور التي هي أفضل من الأمور الجسائية وانصرافها عن الأمور واللذات الجسائية يدلنا أنها من جوهر أعلى من الأمور الجسائية .^(١)

والطريق لتحصيل الخلق الفاضل الذي تنشأ عنه الأفعال الجميلة هو - كما يقول ابن مسكويه - أن نعرف أولاً نفوسنا : ما هي ، ما قواها ، وملكاتنا ، وغاياتنا التي فيها كمالنا .

فهو في النفس لم يشذ عن رأى سقراط وأفلاطون وأرسطو في أنها ليست جسماً ولا جزءاً منه ولا عرضاً له ، لأنها لا تتغير ولا تستحيل كما تتغير وتستحيل الأجسام . كما أنها تقبل جميع الصور حاملة لها ، على حين الأعراض محمولة أبداً موجودة في غيرها لا قوام لها بذاتها .

ومن ناحية أخرى ، فالجسم بأمزجته المختلفة يتشوق لأفعال تناسبه ، وهذه الأفعال نجد بينها وبين ما تشوق إليه النفس من أفعال أخرى مناسبة أو شبيهة .

(١) كتاب « راجا يوجا » للأستاذ حن حنر العليمة الأول ١٩٢٦ عن كتاب « تهذيب الأخلاق » لابن مسكويه .

تشوق النفس إذن إلى ما ليس من طباع البدن من علوم مختلفة، وحرصها على طلب هذه العلوم وإشارها، وانصرافها عن اللذات الجسمية، دليل على أنها من جوهر غير جوهر الجسم^(١).

والأمر كذلك في بيان قوى النفس وملكاتهما، فإتينا نراه يفترف من معين علم النفس عند الإغريق. وبعبارة أدق عند أفلاطون: للنفس ثلاث قوى، واحدة بها الفكر والنظر في حقائق الأمور؛ وأخرى بها ما يتصل بالغضب والشجاعة من الأفعال؛ وثالثة وهي القوة الشهوية يكون عنها ضروب اللذات الحسية وما يتصل بها.

وهذه القوى الثلاث متعارضة متباينة، وقوى إحداها تكون على حساب الأخرين. وعوامل القوة والضعف ترجع إلى المزاج والجبلة أحياناً وإلى العادة وصنوف التأديبات أحياناً أخرى^(٢).

ولقد جاء ذلك في مقالته الأولى في كتاب «تهذيب الأخلاق»، فهو يقول:

«إن قوى النفس تنقسم إلى ثلاثة أقسام: قوة ناطقة وتسمى الملكية وآلتها الدماغ، وقوة غضبية وتسمى السبعية وآلتها القلب،

(١) «فلسفة الأخلاق في الإسلام»، للدكتور محمد يوسف موسى ص ٨٤ عن

«تهذيب الأخلاق» ص ٢ و ٥ و ١٢ و ١٣ و «الفوز الأصغر» ص ٢٢ - ٣٥.

(٢) نفس المرجع ص ٨٤ و ٨٥.

والقوة الشهوية وهي التي تسمى بالبيمية وألتها التي تستعملها من
البدن الكبد.

«والفضائل والرذائل تقابل هذه القوى؛ فالحكمة فضيلة النفس
العاقلة، وهي تأتي عن العلم. والسخاء هو فضيلة البيمية وهو يأتي
عن العفة. وفضيلة النفس الغضبية الشجاعة، وهي تأتي عن الحلم.
وهذه الفضائل الثلاث يحدث عنها إذا اعتدلت في نسبة بعضها إلى
الأخرى فضيلة رابعة، هي كمالها وتمامها، وهي فضيلة العدل. وعلى
ذلك فالفضائل كما أجمع عليها الحكماء أربع وهي: الحكمة، والعفة،
والشجاعة، والعدالة. وأخصدادها: الجهل، والشره والجبن،
والجور...»

إلى آخر ما جاء في هذه المقالة التي ترى منها أن مسكويه تأثر
بأفلاطون وأرسطو في تقسيمه للنفس والفضائل، وأثر الحياة
الاجتماعية.

رأى أبو حيان التوحيدى :

لقد عنى أبو حيان التوحيدى^(١) في أكثر من موضع في مؤلفاته

(١) هو أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدى. ولد ببغداد سنة
٣١٠ هـ. من أبوين فقيرين إذ كان أبوه تاجراً متقلاً يبيع نوعاً من القمح المعروف
باسم «التوحيد» ويقال إنه حُرِّم في طفولته من كل عطف وحنان، فسأتمت حياته =

بالتفرقة بين النفس والروح، على الرغم من اعترافه الصريح بأن الكلام في النفس والروح صعب شاق، ومن الحقيقة بعيد، بدليل أن الله ستر معرفة هذا الضرب عن الخلق حين قال: ﴿وسألتك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾^(١).. ففي كتابه «المقاييسات» مثلاً مجده يقول: «لقد ظننت العامة وكثير من أشباه الخاصة أن النفس هي الروح، وأنه لا فرق بينها إلا في اللفظة والتسمية، وهذا السظن مردود؛ لأن النفس جوهر قائم بنفسه، لا حاجة بها إلى ما تقوم به، وما هكذا الروح فإنها محتاجة إلى مواد البدن وآلاته»^(٢)..

ويعود أبو حيان إلى هذه التفرقة مرة أخرى فنراه يقول في موضع

= منذ البداية بطابع القمع والحرمات، وكان هذا الحرمات سبباً في التجائه إلى الدرس والتحصيل، علته يجد فيه تعويضاً عن بعض ما فاتته من نعم الحياة. فتعلم على كبار علماء عصره، فتلقن أصول الفلسفة والمنطق والطبيعية والإلهيات والتصوف والفقه والحديث والنحو على يد أعظم مفكرى القرن الرابع الهجرى. وله مؤلفات كثيرة نائمة لها قيمتها، منها: «الإمتاع والمؤانسة» و«المقاييسات» و«الزلق» و«المفوات لابن الصاب» و«الإشارات الإلهية» و«رياض العارفين» و«الرسالة الصوفية» و«المناظرات والمناظرات» و«البصائر والذخائر».. وقد أمضى فترة طويلة من شيخوخته في التعب والتسك بصحبة بعض إخوانه ومريديه من الصوفيين إلى أن قضى بشيراز في العام الرابع عشر من القرن الخامس.

(١) «البصائر والذخائر» تحقيق أحمد أمين والسيد صقر ص ١١٦ سنة

١٩٥٣.

(٢) «المقاييسات» تحقيق حسن الطوبى ١٩٢٩ ص ٣٧٢ و٣٧٣.

آخر: «إن الإنسان ليس إنساناً بالروح، بل بالنفس، ولو كان إنساناً بالروح، لم يكن بينه وبين الخمار فرق، بأن كان له روح ولكن لا نفس له. فليس كل ذي روح ذا نفس، ولكن كل ذي نفس ذوروح»^(١).

وهذه التفرقة الأخيرة تدلنا على أن التوحيدى قد فهم «الروح» على أنها مبدأ الحياة في الكائن الحي، فنسب إلى الحيوان «روحاً» هي التي تشيع الحياة في أعضاء جسمه، بينما اعتبر «النفس» جوهرًا قائمًا بذاته هو مبدأ «العقل» في الوجود البشرى، فسوف كلمة «النفس» على الإنسان من حيث هو كائن ناطق^(٢).

رأى ابن سينا في النفس:

لقد اهتم ابن سينا^(٣) بمسألة النفس وعالجها في كثير من كتبه. وكانت تسيطر عليه فكرة أن النفس منزلة من العالم العلوى. وهذا فهو متردد في تقدير الصلة بين النفس والجسد. يقول إنها متفقة مع

(١) «الإمتاع والمؤانسة» تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين ١٩٤٢ ص ١١٣.
(٢) عن كتاب «أبو حيان التوحيدى» للدكتور زكريا إبراهيم (سلسلة اعلام العرب رقم ٣٥) ص ١٩٧ و١٩٨.
(٢) هو أبو على الحسين بن سينا المشهور بالشيخ الرئيس (٤٣٧٠هـ - ٤٢٨هـ (٩٨٠ - ١٠٣٧ م) ولد في قرية خرمين وكان في صغره مريخ اللذكار. انتقل به أبوه إلى بخارى وهي يومئذ حافلة بالعلماء في زمن نوح بن منصور من ملوك السدولة =

الجسد في النوع والمعنى، فهي إذن قوة من قوى الجسد تتخلق من مادته التي يخلق منها، أي أن مادتها محسوسة ملموسة. ولكنه يعود فيقرر أنها تفيض عليه من العقل الفعّال ثم يعود فيقول بسأبديتها وخلودها وبأنها حادثة بحدوث البدن وباقية بعده فلا تنعدم بانعدامه بل تظل محتفظة بكيانها عندما تنفصل عن هذا البدن.

ويقول ابن سينا إن النفس الناطقة (أي الإنسانية) هي جوهر واحد، وهي كمال أول لجسم طبيعي آلي.. وهو يعرف النفس أيضاً «بأنها صورة لجسم طبيعي ذي حياة بالقوة»، كما فعل أرسطو والفارابي من قبل.

ولقد أقرد الفيلسوف ابن سينا في كتابه «النجاة» وهو المختصر من كتابه «الشفاء» فصلاً في أن النفس لا تموت بموت البدن، يقول فيه: «نقول إنها لا تموت - أي النفس - بموت البدن، ولا تقبل الفساد لأن كل شيء يفسد بفساد شيء آخر فهو متعلق به نوعاً من

= السامية. حفظ القرآن وأخذ يقرأ الفقه قبل أن يتجاوز الماشرة من عمره. ولم يدرك السادسة عشرة حتى تعلم المنطق والمنهية والطبيعة والفلسفة والطب ثم تفرغ للتوسع في هذه العلوم. ومرّت به طوارئ مختلفة وقلبي ما يقاسيه طلب العلا من العذاب. وغلبت عليه شهواته البدنية فكثر في مزاجه حتى أسقطه يهيمذان سنة ٤٢٨ هـ. وهو في الثالثة والخمسين من عمره. وله مؤلفات تزيد عن المائة مصنف أهمها كتابه الطبي «القانون» وكتاب الشفاء ومختصره وكتاب التجارة وتوجد مجموعة من كتبه في مكتبي أكسفورد وليدز.

التعلق. فإما أن يكون تعلقه تعلق المكاني في الوجود، وإما أن يكون تعلق المتأخر عنه في الوجود؛ وإما أن يكون تعلق المتقدم عليه في الوجود، وذلك أمر ذاتي لها لا بالزمان. فإين كان تعلق النفس بالبدن تعلق المكاني في الوجود وذلك أمر ذاتي لها لا عارض، فكل واحد منها مضاف الذات إلى صاحبه. فليست النفس ولا البدن بجوهر واحد ولكنها جوهران. وإن كان ذلك أمراً عرضياً لا ذاتياً فإذا فسد أحدهما بطل العارض الآخر من الإضافة ولم تفسد الذات بفساده. وإن كان تعلقه به تعلق للتأخر في الوجود فالبدن علّة النفس في الوجود. والعلل أربع ومحال أن يكون البدن علّة فاعلية. فإن الجسم بما هو جسم لا يفعل شيئاً، وإنما يفعل بقواه. ثم القوى الجسائية كلها إما أعراض وإما صورة مادية. ومحال أن تفسد الأعراض أو الصورة القائمة بالمواد وجود ذات قائمة بنفسها لا في مادة. ومحال أيضاً أن يكون البدن علّة قابلة فقد بينا وبرهنا أن النفس ليست منطبقة في البدن بوجه من الوجود. ومحال أن يكون البدن علّة صورية للنفس أو كمالية، فإن الأولى أن يسكون الأمر بالعكس. فإذاً ليس تعلق النفس بالبدن تعلق معلول بعلة ذاتية. . .

ويفرّق ابن سينا بين ثلاثة أنواع من النفوس: النفس النباتية، والنفس الحيوانية، والنفس الإنسانية. فالنبات له نفس؛ لأنه يتغذى وينمو ويولد المثل. والحيوان له نفس، لأن الوظائف السابقة توجد لديه، بالإضافة إلى قوى أخرى، وهي الإحساس والحركة الإرادية.

وللإنسان نفس، إذ توجد لديه نفس الوظائف السابقة عند الحيوان والنبات، بالإضافة إلى قوى أخرى، وهى الملكات العقلية والوجدانية^(١).

ولقد قسم ابن سينا مواهب النفس إلى أربعة أقسام:

- ١ - الخواص الظاهرة أو الخواص الخمس.
- ٢ - الخواص الباطنية.
- ٣ - الخواص المحركة.
- ٤ - الخواص العاقلة.

وقسم كل خاصة منها إلى أقسام أدق. فذكر القوة الوهمية وبها يكون للحيوان حكمة كما يفعل الإنسان بقوة الفكر أو التأمل. فإنه بالوهم تعلم الشاة أن صغارها في حاجة إلى حنانها، وأنهن في خطر من الذئب. وبهذا وضع ابن سينا حدًا فاصلاً بين الحقيقة وفلاسفة اليونان الذين خلطوا بين تلك القوى وبين قوة الخيلة.

أما فيما يتعلق بصلة العقل المؤثر بالنفس البشرية فلم يحاول ابن سينا أن يقرر رأياً. وهو كسائر فلاسفة الإسلام يرى في تلك الصلة اسمى ما تتطلع إليه النفس البشرية فينادى بقهر المادة وتطهير النفس من أدرانها، حتى تصير وعاءً نقيًا طاهرًا تصلح لتلقى الإلهام الإلهي.

(١) عن كتاب «دراسات في الفلسفة الإسلامية»، ص ٣٣. ودائرة المعارف

الإسلامية، ص ٣٢٣.

ويرى ابن سينا أن الكمال الحقيقي للنفس العاقلة التي تشد المعرفة حقاً، ومصيرها عنده أن تكون عالماً عقلياً تنبسط فيه صور الموجودات. وترتيبهن. ويبدأ هذا الترتيب بالخير العام. ثم المواد الروحية، عارفة بآتم الأشياء كالجمال التام. والخير التام. والمجد التام، فتصل به وتصير مادة نقية. ولكن ما دامت النفس متعلقة بالعالم الأرضي فلا نستطيع أن نشعر بتلك السعادة لما يحيط بها من شهوات وأنواع الفتنة والهوى.

ولا يستطيع الإنسان الخلاص من تلك الأدران إلا إذا تعلّق بأهداب العالم العقلي فتجذبه رغبته إليه وتصونه عن النظر إلى ما وراءه. وهذه السعادة لا تنال إلا بممارسة الفضائل والكمالات.

ثم يتحدث عن سمات نفوسهم وتهذبت أرواحهم فيقول: إنه يوجد رجال ذوو طبيعة طاهرة. اكتسبت نفوسهم قسوة بالطهر، وتعلقها بالعالم العقلي، فتستطيع أرواحهم أن تلمس بتلك الطهارة المجهول، وتلدرك كثيراً عما يخفى على العقول.

ثم يأخذ ابن سينا في شرح مراتب الاتصال وأساره إلى أن يصل إلى فئة يطلق عليهم أسم أصحاب العقل المقنّس والنفس الطاهرة الزكية. ثم يقول: «إن هذا العقل لمن السمو بحيث لا يمكن لكل البشر أن يناهض منه نصيب».

ولابن سينا رسائل كثيرة عن «النفس» جاءت متفرقة في كتابه

«النجاة»، ولقد جمع أطراف هذه المباحث النفسية ونسقتها وربطها بين أجزائها في رسالة على حدة، هي الرسالة التي تسمى «أحوال النفس» حتى يتسنى لطالب هذا العلم أن يطلع عليه في كتاب مستقل يحتوي على جملة آرائه الرئيسية في النفس^(١). وكان أوفى ما كتب في هذا الباب. عدا رسائل أخرى منها: «زبدة قوى الحيوانية» ومقالة في القوى، الإنسانية وإدراكاتها و«رسالة في القوى الجسمانية» ومبحث عن القوى النفسانية، و«رسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها» و«رسالة في الكلام على النفس الناطقة».

وكان لهذه الرسائل أثرها العظيم عند الفلاسفة والمفكرين في أوروبا. حتى أن أحد هذه الرسائل وهي «مبحث عن القوى النفسانية» نقلت مع شروحاتها والتعليقات عليها إلى سبع لغات هي: العربية، والسريانية، والعبرية، والسلاطينية، واليونانية، والألمانية، والفارسية، بين سنة ١٥٤٦ و ١٨٧٥ ونشرت سنة ١٨٨٢ باللغة الإنجليزية^(٢).

وجدير بالذكر أن هذا الكتاب وضعه ابن سينا حين كان في السادسة عشرة من عمره. وكان قد دعى إلى بخارى لمعالجة الأمير

(١) عن كتاب «أحوال النفس» تحقيق الدكتور أحمد فؤاد الأهواني ص ٦.
(٢) انظر كتاب «هدية الرئيس للأمير» تحقيق إدوارد كورنيليوس فنديك
نشر في الشرق الأمريكي مطبعة المعارف ١٣٢٥ هـ. ص ٤ - ١٠.

نوح بن منصور بن نصر الساماني، صاحب خراسان، من مرضى
اعتراه. فأخذ يعالجه حتى برئ واتصل به وقرب منه. وأهداه هد
الكتاب الذي جعل عنوانه وقتذاك: «هدية الرئيس للأمير وهي
مبحث عن القوى النفسانية أو كتاب في النفس على سنة الاختصار
ومقتضى طريقة المنطقيين».

وجاء هذا الكتاب في عشرة فصول هي :

الفصل الأول : في إثبات القوى النفسانية التي شرع في
تفصيلها وإيضاحها.

الفصل الثاني : في تقسيم القوى النفسانية الأولى وتحديد
النفس إطلاقاً.

الفصل الثالث : في أنه ليس شيء من القوى النفسانية حادث
عن امتزاج العناصر الأربعة بل واردة عليها من الخارج.

الفصل الرابع : في تفصيل القول في القوى النباتية وذكر
الحاجة إلى كل واحدة منها.

الفصل الخامس : في تفصيل القول في القوى الحيوانية وذكر
الحاجة إلى كل واحدة منها.

الفصل السادس : في تفصيل القول في الحواس الظاهرة
وكيفية إدراكها وذكر الخلاف في كيفية الإبصار.

الفصل السابع : في تفصيل القول في الخواص الباطنة والقوة المحركة للبدن.

الفصل الثامن : في ذكر النفس الإنسانية من مرتبة بدنها إلى مرتبة كمالها.

الفصل التاسع : في إقامة البراهين الضرورية في جوهرية النفس الناطقة على طريقة النطق.

الفصل العاشر : في إقامة الحججة على وجسود جسيهر عقلي مفارق للأجسام قائم للقوى النطقية مقام النبوع ومقام الضسوء للإبصار. ويبان أن النفوس الناطقة تبقى متحدة به بعد موت البدن آمنة من الفساد والتغير وهي للسسمى العقل الكلى.



ولقد أثر عن ابن سينا جملة صالحة من الشعر تمازجه الحكمة،
وتتخلل ألفاظه الغضة أزهير الخيال للنير. فهو يقول في النفس
والحكمة :

هذب النفس بسالعلوم لسترق،
وذر الكل فهي للكل بيت :
إنما النفس كالزجاجة، والعلم
سراج، وحكمة الله زيت

فإذا أشرقك فإنك حي،
وإذا أظلمت فإنك ميت

وفي هذا المعنى يقول أيضاً :

خير النفوس العسارقات ذواتها
وحقيق كميات مساهياتها
وبما الذى حلت وم تكونت
أعضاء بنيتها على هيئاتها :
نفس النبات ونفس حن ركبها،
هلا كذاك سمته كسائتها؟
يا للرجال لعظم رزه لم تنزل
منه النفوس تحب في ظلماتها..

كما أن له أيضاً قصيدة عينية مشهورة في النفس توضح آراءه
فيها، وبين فيها أحوال النفس الناطقة وتعلقها بالبدن وفراقها عنه.
وهي تتسق مع تعريفه للنفس، ومع براهينه على وجودها. وهي
تذكرنا إلى جانب ذلك بأساطير أفلاطون بعض الشيء، ففيها بيان
لأصلها ومصيرها، وفيها إشارة إلى الأجنحة، والتذكر والنسيان،
والخين إلى الصعود، وإدراك الحقائق الخالدة الثابتة.

وسوف ننشر هذه القصيدة مشروحة فيما بعد لما فيها من فائدة

ومتعة..

رأى الغزالي في النفس :

لقد فرّق الإمام الغزالي^(١) بين النفس والروح والعقل في كتابه «إحياء علوم الدين». ولكنه كتب مقدمة كتابه «معارج القدس في مدارج معرفة النفس» عن «معاني الألفاظ المترادفة على النفس وهي أربعة : النفس والقلب والروح والعقل» ثم قال : «إن النفس يراد بها حقيقة الأدمى وذاته. فإن نفس كل شيء حقيقته، وهو الجوهر الذي هو محل المعقولات. وهو من عالم الملكوت ومن عالم الأمر على ما نبين.. نعم تختلف أسمائها باختلاف أحوالها العارضة عليها. فإن

(١) هو حجّة الإسلام أبو حامد محمد الغزالي، ولد بطوس من أعمال خراسان سنة ٤٥١ هـ. ومات بها سنة ٥٠٥ هـ. (١٠٥٨ - ١١١١ م.) أي بالغاً من العمر ٥٤ عاماً بعد أن مثل دوراً مهماً في الحركة الدينية والفلسفية في عصره. وكان ذا عقل ذكي ونفس كريهة، لم تر العيون مثله لساناً وبياناً وخاطرًا وذكاءً وعلماً وعملاً فاق أقرانه من تلامذة الحرمين وانتشر صيته في الأفاق. وصنّف كتباً لم يُصنّف مثلها. ثم حجّ وترك الدنيا واختار الزهد والعبادة وبلغ في تهذيب الأخلاق. ومن مؤلفاته المتحفل في علم الجدل. والتبر المسبوك. وإحياء علوم السدين. ومقاصد الفلاسفة الذي ترجم إلى اللاتينية وطبع في فيينا سنة ١٥٠٤ م. وتهافت الفلاسفة وتوجد له ترجمة عبرية عطفية في مكتبة فرنسا الوطنية. وكتاب المنقذ من الضلال، وميزان العمل الذي ترجم إلى العبرية واللاتينية والوسيط في الفقه. ومعيان العلم، ومشكاة الأنوار وكتاب الدرّة الفاخرة الذي ترجمه جسويتيه وطبع في جنيف سنة ١٨٧٨.

اتجهت إلى صوب الصواب ونزلت عليها السكينات الإلهية وتواترت
عليها نفحات فيض الجود الإلهي فتطمئن إلى ذكر الله عز وجل
وتسكن إلى المعارف الإلهية وتطير إلى أعلى أفق الملكية فيقال نفس
مطمئنة... (١)

ثم هو يقول بعد كلام طويل في الصفحة ١٣ في من نفس
الكتاب: «ونحن حيث أطلقنا في هذا الكتاب لفظ النفس والروح
والقلب والعقل فنريد به النفس الإنسانية التي هي محل
المعقولات...»

ثم ينتهي بخاتمة تنعطف على ما سبق من معرفة النفس وقواها
وبذلك «يتدرج إلى معرفة الحق جل جلاله ومعرفة صفاته وأفعاله
لأن المبادئ إنما تراد للنهايات، والنهايات إنما تظهر للمبادئ. فكل
علم لا يؤدي إلى معرفة الباري جل جلاله فهو علم الجسدوى
والفائدة، وقليل النفع والمائدة...» ويقول:

«إننا أثبتنا النفس على الجملة بمعرفة آثارها وأفعالها. فالنفس
النباتية عرفناها بآثارها من التغذية والتنمية وتوليد المشل. والنفس
الحيوانية بآثارها من الحس والحركة الاختيارية. والنفس الإنسانية
بالتحريك وإدراك الكلبيات. وعلمنا أن هذه الأفعال تتعلق بمبدأ

(١) الصفحة ١٠.

يسمى ذلك المبدأ نفساً فيكون قوامها ووجودها وخاصيتها بذلك المبدأ الذى هو النفس فكذلك فاعلم أن الوجود على قسمين : إما أن يتعلق وجوده بغيره بحيث يلزم من عدم ذلك الغير عسسه أو لا يتعلق. فإن تعلق سميناه ممكناً، وإن لم يتعلق سميناه واجباً بذاته. فيلزم من هذا فى واجب الوجود معرفة أمور...^(١)

وآراء الغزالي فى النفس - كما نرى - لا تكاد تختلف فى قليل أو كثير عن آراء ابن سينا فهو يتبعه خطوة خطوة فى بيان صفاتها والبرهنة على وجودها وخلودها.

النفس عند ابن رشد :

وأما ابن رشد^(٢) فيعتبر النفس والروح كائناً واحداً فضلاً عن تكراره القول بغموض مسألة الروح فى كتابه «فصل المقال».

(١) عن كتاب «معارج القنس فى مدارج معرفة النفس» للغزالي ص ١٤١.
(٢) هو أبو الوليد بن رشد المالكي (٥٢٣ هـ - ٥٩٥ هـ) (١١٢٦ م - ١١٩٨ م) وزير دهره وعظيمه وفيلسوف عصره وحكيمه. تولى رئاسة الفشوى فى مراكش ثم استوطن أشيلية فاشتهر بالتقدم فى العلوم حتى فاق أهل زمانه وطار ذكره فى أقطار الأندلس والمغرب. ولد فى قرطبة من أسرة معروفة بالأندلس وكان جده لوالده قاضى القضاة. وله مؤلفات جليلة عزيزة الوجود منها : كتاب الكليات وهو مؤلف طهى فى سبعة أجزاء. وكتاب مختصر المحسطن. وهذا فضلاً عن الشروح التى قام بها لكتب أرسطو وهى على ثلاثة أنواع : مطول، ووسط، ومختصر. وأغلب مؤلفاته ترجم إلى اللغتين العبرية واللاتينية وينثر وجود نصها للمرى.

وقد اتهم ابن رشد بأنه يذهب إلى أن النفوس الفردية تندمج في النفس الكلية بعد الموت، وأنه ينكر على هذا النحو خلود كل نفس إنسانية على انفرادها، وليس هذا من الحق في شيء، إذ أنه يجب أن نميز في مذهب ابن رشد - كما في مذاهب غيره من الفلاسفة - بين «النفس» و«العقل» فالعقل مجرد غاية التجريد مخلص عن المادة، ولا يكون بالفعل إلا إذا اتصل بالعقل الكلي أو العقل الفعال وما نسميه عقلاً عند الإنسان ليس إلا قوّة أو استعداداً لقبول المعقولات الصادرة عن العقل الفعال، وتسمى هذه القوّة «العقل المنفعل» وهي ليست موجودة بالفعل وإنما يجب أن تخرج إلى الفعل وأن تصير «عقلاً مستفاداً»، فهي إذن تتصل بالعقل الفعال الذي هو محل المعقولات الأزلية الأبدية، ويانصأها بهذا العقل الفعال تصير بدورها أبدية..

وليس الأمر كذلك في النفس؛ لأن النفس عند هؤلاء الفلاسفة هي القوّة المحركة التي تحيي الأجسام الطبيعية الآلية (العضوية) وتغذيها وتنميتها؛ وهي نوع من القوّة يحيي المادة، وليس مخلصاً من غواشيتها كخلوص العقل، بل هو عكس ذلك شديد الاختلاط بها، حتى إن النفس قد تكون متكونة مما يشبه المادة أو من مادة لسطيقة بالغة اللطف. وهذه النفوس الإنسانية «صور» للأجسام، وهي لذلك لا تقوم بها بل تبقى بعدها وتستطيع أن تحيا منفردة بعد فناء الأجسام.

وليس هذا البقاء عند ابن رشد إلا مجرد إمكان فحسب، فهو لا يعتقد أن الأدلة الفلسفية البهتة تستطيع أن تعطينا برهاناً قاطعاً على خلود النفس إذا تصورناها على هذا النحو. وحل هذه المسألة متروك إلى الوحي^(١).

وإذا قال ابن رشد بوحدة النفوس، فإنما يقصد بذلك أن الإنسانية تعيش عيشة دائمة، وأن خلود العقل الفعال هو إحياء للإنسانية واستمرار دائم للمدنية. ويعلق على هذا الأستاذ لطفى جمعه في كتابه «تاريخ فلاسفة الإسلام» فيقول:

«... نلفت نظر الباحثين إلى الاتفاق التام بين هذا القول وبين نظرية أوجست كونت في خلود الإنسانية وبقائها، تلك النظرية التي أدت به إلى وضع دين الإنسانية، فأقيمت له معابد في بعض ممالك الغرب...»

النفس عند ابن عربي:

ابن عربي^(٢) فيلسوف لم يشذ عن أمثاله من المفكرين، فله رسالة

(١) انظر «دائرة المعارف الإسلامية»، ص ٢٨٩ و ٢٩٠ وكتاب «تحافت التهافت» ص ١٣٧.

(٢) هو الشيخ الأكبر سلطان العارفين سيدي أبو بكر محمد بن علي بن عبد الله الحاتمي الملقب بحصيص الدين بن عربي. ولد «بمصرية» يوم الاثنين سابع=

في النفس كما للكندي والفارابي وابن سينا وإن كان أقل منهم تحديدًا ودقة. وقد عني في هذه الرسالة ببيان النفس ما هي، وبالإشارة إلى ما فيه خيرها وسعادتها.

إن النفس - فيما يقول - هي ما يعنيه الواحد منا حين يقول «أنا» ومع هذا فالحكماء ليسوا على اتفاق على معناها فمنهم من يرى

رمضان سنة ٥٦٠ هـ. وتوفي سنة ٦٣٨ هـ. (١٦٢ - ١٢٤٠ م.) - فيلسوف صاحب مذهب ومؤسس مدرسة. ولكنه فيلسوف أثر أن يهمل منهج العقل الذي هو منهج التحليل والتركيب ويأخذ بمنهج التصوير المماثل والرمز والإشارة والاعتقاد على أسلوب الخيال في التعبير. وربما كان له عسره في كل ذلك لأنه - ككل صوف - يعالج مسائل يستعصى على العقل غير المؤيد بالفوق أن يدركها ويستعصى على اللغة غير الرمزية أن تفصح عن أسرارها. ومتى كان العقل وحده أداة صالحة للوصول إلى اليقين، أو إلى الحقيقة التي نطمئن إليها لنفس؟ كتاب «فصوص الحكم» للدكتور أبوالمعلا عفيف، ص ٩. طبعة بيروت.

ولابن عربي من المؤلفات ما لا يكاد العقل يتصور صدور صدوره عن مؤلف واحد بل يتفق كل لحظة من لحظات حياته في التأليف والتحرير. بل شغل شغلًا غير قليل منها فيما يشغل به الصوفية أنفسهم من ضروب العبادة والمجاهدة. وليسوا قيس ابن عربي بغيره من كبار مؤلفي الإسلام أمثال ابن سينا والفارابي لبثهم جميعًا في ميدان التأليف من ناحية الكم والكيف على السواء. «دكتور أبو المعلا عفيف» فقد ألف نحوًا من ٢٨٩ كتابًا ورسالة على نحو قوله في مذكرة كتبها عن نفسه سنة ٦٣٢ - أو ٥٠٠ كتاب ورسالة على حد قول عبد الله جلمى صاحب كتاب «نفحات الأنس» أو ٤٠٠ كتاب كما يقول الشمراني في «اليواقيت والجواهر»

أنها مادة جسمية تكون في هذا الجسم المرقى المحسّ، وآخرين يرون أنها جوهر روحاني متشرف في الجسم.

ومهما يكن، فهي التي تعطى الجسم الحياة، وتتخذ منه آلة لاكتساب العلوم، التي بها يمكن أن تصل لكمالها الخاص وإلى معرفة ربها. وهذه الطريقة تكون مستعدة لأن ترقى حتى تمثل في حضرة الله، كأنها في حضرة أخلص أحبائها، فتصير في حالة من الغيبة لا نهاية لها^(١).

ولكى يوضح الفرق بين النفس والجسم نراه يقول: «إن الله جعل الإنسان من عنصرين، جسم كثيف مظلم، وجوهر بسيط منير كسائر الجواهر المفارقة للمواد، يبعث في هذا الجسم الحياة. هذا الجوهر هو النفس الناطقة، أو هو العقل، على حدّ تعبير الفلاسفة، أو النفس المطمئنة على حدّ تعبير القرآن، أو القلب في اصطلاح المتصوفة.

والنفس مهما تعددت أسمائها، وجدت قبل الجسم ولا تفسى بفنائها، وليست كل النفوس على درجة واحدة في الكمال، أو سواء في تعلقها بالأجسام وظلماتها، وكمالها يرجع إلى ما تبذل من جهد في العلم، وفي الخلاص من أسر الجسم والشهوات.^(٢)

(١) عن كتاب «فلسفة الأخلاق في الإسلام» للدكتور محمد يوسف موسى ص ٢٧٥ عن «مفكر الإسلام» لليارون كلرادى فر، ج ٤ ص ٢٢٠ - ٢٢١.

(٢) نفس المرجع ص ٢٧٥ - ٢٧٦ عن «مفكر الإسلام» ص ٢٢١ وما بعدها.

ولقد قسّم الشيخ محي الدين النفس إلى ثلاث قوى أى نفوساً،
وهي : النفس الشهوانية، والنفس الغضبية، والنفس الناطقة.. .
وقال : «إن جميع الأخلاق تصدر عن هذه القوى. فمنها ما يختص
بإحداها، ومنها ما يشترك فيه قوتان، ومنها ما يشترك فيه القوى
الثلاث. ومن هذه القوى ما يكون للإنسان وغيره من الحيوان، ومنها
ما يختص به الإنسان فقط. أما النفس الشهوانية فهي للإنسان ولسائر
الحيوان. وهي التي يكون بها جميع اللذات والشهوات الجسدية
كالإقدام إلى المأكّل والمشرب والمباصعة. وأما النفس الغضبية فيشترك
فيها أيضاً الإنسان وسائر الحيوان. وهي التي يكون بها الغضب
والجراة وعبة الغلبة. وهذه النفس أقوى من النفس الشهوانية وأضرّ
بصاحبها إذا ملكته وانقاد لها. وأما النفس الناطقة وهي التي بها تميز
الإنسان من جميع الحيوان وهي التي بها يكون الذكّر والتمييز والفهم،
وهي التي بها شرف الإنسان وعظمت همته.. .»^(١).

ماذا قال إخوان الصفا في النفس ؟ :

لقد كان لجماعة إخوان الصفا^(٢) رأى في النفس يُعتدّ به، ولهم

(١) عن كتاب «تفسير لأجل» للشيخ محي الدين بن عربي ١٣٢٢ هـ

(٢) من أشهر الجماعات الإصلاحية التي أخذت على عاتقها وضع المؤلفات
الفلسفية الدينية وبثها بين طلاب الحكمة، وتسهيل الاطلاع على خفايا الشرائع. نشأ
إخوان الصفا حوالي منتصف القرن الرابع الهجري. واحتلت في تاريخ الفسكرة

منعبد في هبوط النفس من الفلك العلوى إلى الأرض. وفي تقرير
مصيرها بعد ذلك بما تكون قد قسّمته من أعمال. وتتجلى هذا
للذهب في رسائلهم الجامعة المعروفة. فن أقوالهم المبسوثة في هذه
الرسائل يتبين لنا أنهم يرون أن النفس الكلية انصرفت إلى العقل
الكلى علّتها، تقبل منه الفيض والفضائل، وتترادى فيها للتسالات
العقلية أنواراً روحانية، وهي منعمة، مسرورة، غير أنها أرادت التشبه
بعلّتها، فتكون نافعة، تفيض على كائن آخر ما أفاضه العقل الكلّي
عليها، فكُنّها الواحد من الجسم، وهيأه لها، خالقاً عالم الأفلاك
وأطباق السموات، من الفلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض،
فتحرّكت النفس الكلية حركة اختيارية، وصوّرت في الأشياء المخلوقة
صوراً لما في ذاتها. وجرى أمر النفس الكلية على هذا الحال زمناً
مديداً، على أحسن نظام إلى أن كان من آدم ما كان، فسأهبطت
النفوس الجزئية إلى مركز الأرض، واتحدت بالأجسام السفلية، وفارق
الأجرام العلوية من استحق منها العذاب لما كان منه من النسيان
والخطيئة. وانقسمت هذه النفوس الجزئية إلى ثلاث فرق: الأولى
اتحدت بجمهورية المعادن، والثانية اتصلت بجمهورية النبات، والثالثة
اتحدت بجمهورية الحيوان. ثم عطفت النفس الكلية بعد ذلك راجعة

= العربى مقاماً ربيعاً. ولقد نشط أعضاؤها في السعى المتواصل إلى الإصلاح
الاجتماعى والدينى إلى جانب ما قاموا به من تبسيط العلوم ونشرها في بيئتهم.

إلى قبول الفيض العقلي بالتوبة والاستغفار لمن في الأرض»^(١).

ولقد عرفوا النفس بأنها «جوهرة سماوية نورانية حية، علامة فعالة بالطبع، حساسة دراية لا تموت ولا تفتى، بل تبقى مؤبدة، إما ملتدة، وإما مؤتلمة».

أما قواها فهي عندهم كثيرة، يقولون إنها لا يحصى عددها إلا الله. وهم يذكرون منها: الباصرة والسماعة والشلعة والذائقة واللامسة والتخيلة والذاكرة والمفكرة والحافظة والناطقة والكتابة وهلم جرا. أما كيفية حصول للمعلومات فيها فهم يتصورونها على النحو الآتي:

«بيان ذلك أن القوة التخيلية إذا تناولت رسوم المحسوسات من القوى الحاسة أدركت وأدت إليها فتجمعها كلها وتؤديها إلى القوة المفكرة التي يجراها وسط الدماغ حتى تميز بعضها من بعض، وتعرف الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، والضار من النافع، ثم تؤديها إلى القوة الحافظة التي يجراها مؤخر الدماغ لتحتفظها إلى وقت الحاجة والتذكار..»

ثم إن القوة الناطقة تتناول تلك الرسوم المحفوظة وتعبّر عنها عند البيان للقوة السامعة من الحاضرين في الوقت».

(١) عن كتاب «إحوان الصفا» للدكتور جبر عبد النور، عن «الرسالة الجامعة» جزء ٢ ص ٢٩٦ - ٢٩٩.

وفي رأيهم أن حالة النوم تبين أوضح تبين دور النفس وأهميتها، فإذا استولى السبات على الإنسان، هددت الحواس، وسكنت الحركات، وقابلت حالة الجسم المدينة في الليل: تغلق أبوابها، وتتعطل صناعتها، وتخلو طرقاتها، وينام سكانها. ثم ينجلي مبلغ أثرها بعد أن تفارقه نهائياً، فإذا بكل ما كان يظهر منه من عمل يتلاشى، ويصبح الجسم كالمدينة الخربة التي تهاوت جدرانها، وخرت سقفها منازلها، يتغير ويتفتح ويصير ماوى الديدان، ويتحول تراباً^(١).

ولإخوان الصفا كلام كثير كثير عن النفس أثبتوه في رسائلهم الجامعة مجتزئاً من الرسالة التالية التي يفتنون فيها رأي الفائلين بأن الجسم وعاء للنفس، ذاهبين على العكس من ذلك إلى أن الجسم محمول لا حامل، وهي رسالة لها أهميتها وفائدتها:

«... واعلم أنه (أي الجسم) محمول لا حامل - كما ظن كثير من لا علم عندهم ولا معرفة معهم أن الجسم حامل النفس، وأنه زبدته وصفوة طبائعه، وأنها تقوى بقوة الغذاء، وتضعف بضعفه، وليس الأمر على ما ظنوا ولا القضية كما توهموا، وإنما النفس حاملة للجسم وأعراضه، وهي الذاهبة به في الجهات التي يجب لها، وهي معه تدبره في مجيئه وذهابه، وبها يستقر على ما يجاته ويشاكله من الكائنات، إما في جهة من الجهات الأرضية من هبوط إلى أسفل

(١) نفس المرجع عن الرسائل جزء ثان من ٣٣٣.

بحيث يكون له ثبات القدمين في الهيوط، وإما طلوع إلى فوق بحيث يمكنه مثل ذلك. وإما استواء طيران في الهواء وطلوع إلى السماء فلإنها لا يمكنها بهذه الطينة الكثيفة ترفيها إلى هناك، بل يمكنها الصعود بمجرد ما إذا تخلصت منه وانفصلت عنه».

«وذلك أن السفينة في البحر المحركة الآلة المتقنة الأداة تمر فيه بمن يرب أمرها ويصلح حالها، ومع ذلك فإنها لا تسير إلا بيبوب الرياح القائدة لها إلى الجهة التي يختار صاحبها، وإذا سكنت الريح وقفت السفينة عن ذلك الجريان، كذلك جسد الإنسان إذا فارقت النفس لا تتبأ له تلك الحركة التي كان يتحرك بها مع النفس. ولم يعدم من آتته شيئاً ولا ذهب منه عضو من الأعضاء إلا ذهب الروح منه فقط. والبرهان أن الريح ليست من جوهر السفينة ولا السفينة حاملة بل الريح محركة لها».

«فإذا صح أن الريح محركة للسفينة وليست من جوهر السفينة ولا تقدر السفينة ومن فيها على استرجاع الريح بعد ذهابها بجيلة يعملونها أو صنعة يصنعونها كذلك ليست الروح من جوهر الجسم، ولا الجسم حامل للروح ولا يقدر أحد من العالم على استرجاع النفس إذا فارقت الجسم».

«فيا ليت شعري كيف يفسد هذا البرهان إلا بمكابرة العيان!...
فإذا تحققت ذلك وعلمت أن جسمك إنما هو سفينة معدة لهيوب

الرياح ونزولها عليها، علمت أن هلاك السفينة - إذا هلكت - يكون من حالين : إما بفساد من جهة جرمها والخلل تركيبها فيدخل الماء ويكون ذلك سبب غرقها وهلاكها وهلاك من فيها إن غفلوا عنها ولم يتداركوها بالإصلاح والتفقد لها. كهلاك الجسم من غلبة إحدى الطبائع متى تهاون صاحبه وغفل عنه، كذلك النفس لا تبقى مع الجسد إذا فسد مزاجه، وتعطل نظامه، وضعفت آتته كما لا يتبها للريح أن تعود للسفينة كما كانت تسوقها من قبل غرقها، والريح موجودة في هبوبها غير معلومة من الموضوع الذي كانت السفينة فيه قبل هلاكها، كذلك النفس باقية في معادها كبقاء الريح في أفقها بعد تلف الجسم، وإنما يكون الغرق للمركب بفساد آتته وهلاك الجسم بفساد مزاجه وغلبة طبائعه.

«وأما القسم الثاني فهو أن يكون المركب هلاكه بقوة الريح العاصفة الهابة الوارد منها على السفينة ما ليس في وسع آتتها حمله ولا القدرة عليه فتضعف الآلة وتنكسر الأداة، فإن كان من فيها من أهلها عارفين موجب ذلك الأمر من نزول ذلك العاصف وأنه بموجب المقدار اطمأنت نفوسهم وسلموا إلى ربهم ووعظ بعضهم بعضا وصبروا على ما نالهم، فإن زاد بهم الأمر حتى يسطح السفينة ما يكسرها ويكون منهم ما قضى، كانوا مطمئني النفوس ولا يتمونها، إنما أصابهم ذلك لتضيق وقع منهم، كذلك الأحوال العارضة للجسم من جهة الأحكام الفلكية والحركات النفسانية المنبثقة

أولاً من النفس الكلية التي تذهب بالأجسام وتهلكها لا دواء للمعالج والطبيب ولا للمريض أيضاً.

«فأما الصبر عليها وقلة الجزع منها إلى أن تنزول أو يكون بها الانتقال إلى دار المعاد، فأحق ما صبر عليه وأولى ما استجيب له».

«وبهذا الاعتقاد صحَّ أن النفس هي جوهر غير الجسم، وأنها هي الحملة له المتلاة به، فإذا تصوَّرت ذلك وصحَّ عندك وثمَّ لك العمل بهذه السياسة فقد استراحت نفسك من الهمِّ والغمِّ من أجله وسيبه»^(١).

(١) عن الرسائل: جزء رابع ص ٢٩٦ و ٢٩٧.

هل تظل النفس حية بعد مفارقة الجسد؟

إن بقا النفس بعد انفصال الجسد قضية من القضايا الهامة التي شغلت عقول المفكرين والفلاسفة منذ قديم، وستظل تشغلها إلى أن يشاء رب العالمين. وهي قضية ثبتت صحتها وأصبحت في غير حاجة إلى أي نقض أو تفنيد، بالرغم من كثرة ما قاله الماديون من أقوال إن دلت على شيء فلنما تدلّ على جهل ومكابرة.

فالنفس البشرية - لبساطتها وروحانيتها وعدم قابليتها للفساد يمكنها أن توجد بغير أن تخشى مبدأ موت يكون فيها ذاتيا، وفي عبارة أخرى، إن النفس قادرة، بطبيعتها، على أن تظل موجودة حية بعد انفصالها من الجسد.

ثم إن النفس ممتازة، بطبيعتها، عن الجسد، فلها حياة خاصة بها، وهي قائمة بعقلها الذي يختص بالأمور الروحية وغير المادية، وإرادتها التي تتعلق بالخير غير المنظور. والكائن الذي يتصف بهذه

القوى الشريفة يمكنه أن يوجد حتى بعد انفصاله من الجسد وأن يستمر في القيام بأعماله أيضاً دون أن يكون هناك ما يمنعه من ذلك؛ لأن موضوع عقلها هو الأمور الروحية وغير المادية.

وبهذا المعنى يقول الرئيس ابن سينا:

«اعلم أن الجوهر الذي هو الإنسان في الحقيقة لا يفنى بعد الموت، ولا يبلى بعد المفارقة عن البدن، بل هو باق لبقاء خالقه تعالى، وذلك لأن جوهره أقوى من جوهر البدن، لأنه محرك هذا البدن ومدبره ومتصرف فيه، والبدن منفصل عنه تابع له، فيأذن لم يضر مفارقتها عن الأبدان وجوده، إذ البدن موجود باق بعد الموت، فيأذن لا يضر وجود النفس، ويقاؤه كان أولى. ولأن النفس من مقولة الجوهر، ومقارنته مع البدن من مقولة المضاف، والإضافة أضعف الأعراض لأنه لا يم وجودها بموضوعها، بل يحتاج إلى شيء آخر وهو المضاف إليه، فكيف يبطل الجوهر القائم بنفسه ببطان أضعف الأعراض المحتاج إليه؟. ومثاله أن من يكون مالكا لشيء متصرفاً فيه، فإذا بطل ذلك الشيء لم يبطل المالك بسطلانه؛ ولهذا فإن الإنسان إذا نام بطلت عنه الحواس والإدراكات وصار ملق كاليت، فالبدن النائم في حالة شبيهة بحال الموت، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «النوم أخو الموت». ثم إن الإنسان في نومه يرى الأشياء ويسمعها، بل يدرك الغيب في المناسبات الصادقة بحيث

لا يتيسر له في اليقظة. فذلك برهان قاطع على أن جوهر النفس غير محتاج إلى هذا البدن، بل هو يَضِيف بمقارنة البدن ويتقوى بتعطله، فإذا مات البدن وخرّب تخلص جوهر النفس عن جنس البدن. فإذا كان كاملاً بالعلم والحكمة والعمل الصالح انجذب إلى الأنوار الإلهية، وأنوار الملائكة، والملا الأعلى، انجذاب إبرة إلى جِبل عظيم من المغناطيس، وفاضت عليه السكينة وحقت له السطمانية، فنودي من الملا الأعلى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾^(١).

وللسيد البطليوسي^(٢) رأى له قيمته في هذا الموضوع أفرد له فصلاً خاصاً في كتاب الحقائق في المطالب العالية الفلسفية المويضة، وهو من الكتب النادرة، قال فيه^(٣):

«النفوس ثلاثة: نباتية؛ وحيوانية؛ وناطقة. فأما النفس النباتية والنفس الحيوانية فلا نعلم خلافاً في عدمها بعدم الجسم وإنما وقع الخلاف في النفس الناطقة وهي العاقلة المميزة. فزعم قوم أنها تعدم

(١) عن رسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها الفصل الثالث لابن سينا.
 (٢) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي، وكان عالماً باللغة والأدب متبحراً فيها، فقيهاً، وكان له تحقق في الفلسفة والعلوم القديمة والحديثة، وله مؤلفات عديدة. ولد في بطليوس سنة ٤٤٤ هـ. وتوفي ببلنسية في رجب سنة ٥٢١ هـ. وكتباها من بلاد الأندلس «قلائد العقيان ووفيات الأعيان».

(٣) ص ٦١ - ٦٧.

عند فراقها الجسم كعدم النباتية والحيوانية. وقال قوم إنها ببقية حياة لا عدم لها، وهو مذهب سقراط وأرسطو وأفلاطون وسائر زعماء الفلاسفة وعلى ذلك تدل الشرائع كلها. وأنا أذكر جملة من البراهين الفلسفية على بقاءها لأن الشرعية لا تليق بهذا الموضع. واستدل البطليوسى على بقاء النفس الناطقة بثانية براهين نكتفى ببعضها فيما يلي :

البرهان الأول : ميل الإنسان إلى الشهوات الطبيعية، والأهواء واللذات الجسدية تمنعه من تصور الحقائق وقبول المعارف وتكسب ذهنه بلادة. وإقلاقه من ذلك يفيد ذهنه حدة ويعينه على قبول المعارف وتصوير الحقائق. فدل ذلك على إذابة الطبيعة للنفس الناطقة وأنها كلما انسلخت منها كانت أكثر تمييزاً، وأوضح معرفة، فيتج من هذه المقدمات أن تكون عند الموت أصح تمييزاً، وأبصر للحقائق لانسلاخها من جميع المادة ولا يكون التمييز والتصوير إلا لحى فالنفس إذن حية بعد الجسم. وقد وافق على هذا البرهان الفيلسوف منصوص شرعنا قول الله تعالى : ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾^(١). وقول سيدنا على كرم الله وجهه : والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

البرهان الثاني : نفوسنا الناطقة إنما تفتقر إلى الحواس الجسدية

(١) سورة في آية ٢٢.

مادامت عارية من الصور العقلية فإذا حصلت فيها صورة من الصور العقلية لم تحتاج إلى استعمال الحاسة التي كانت تتوصل بها إليها، فدل ذلك على أن للنفس الناطقة استقلالاً بذاتها تستغنى به عن الجسم وأن أعضاء الجسم إنما هي آلات لها تلتقط بها معارفها فأنتج من ذلك أن النفس الناطقة إذا تجوهرت وحصل لها العقل المستفاد لم تحتاج إلى التعلق بالجسم.

البرهان الثالث: نجد الإنسان بالمشاهدة يبدأ طقلاً لا يعلم شيئاً ثم لا يزال كلما نشأ يترقى في المعارف وتكثر المعقولات في نفسه حتى يصير فيلسوفاً حكيماً فلا يخلو ما يستفيدة من التمييز والمعرفة أن يكون من قبل جسمه فقط أو من قبل نفسه فقط أو من قبلها معاً. فإن كان من قبل جسمه فيجب أن يكون الإنسان كلما ضخم جسمه وكثرت مادته كان أشدّ تهيؤاً لقبول المعارف، وكلما ضؤل وقلت مادته كان أبعد عن قبول المعارف. ونحن نرى الأمر بالعكس من ذلك لأننا نرى من به السلّ والذبول ينقص جسمه كل يوم وذهنه باق على كماله إلى أن تفارقه النفس، فيبطل بهذا الدليل أن يكون ذلك من قبل جسمه، بنحو هذا الدليل يبطل أن يكون ذلك من قبل نفسه وجسمه، معاً فإذا ما يستفيدة الإنسان من التمييز والمعارف إنما هو من قبل النفس فقط، ولاحظ في ذلك للجسم أكثر من أنه آلة لها بمنزلة الآلات للصناعة، ولا يصح وجود التمييز والمعارف من موات وإنما يصح وجودها من حي، فالنفس إذن حية بالطبع لأن في طبيعتها

فيقول العلوم والمعارف، والجسم موات بالطبع إذ ليس في طبيعه قبول شيء من ذلك، فيبان بالبرهان أن الإنسان مركب من جوهرين :

أحدهما : حَيّ بالطبع وهو النفس.

والثاني : موات بالطبع وهو الجسم . وأتينا لما افترقا زال ما عرض لكل واحد من قبل صاحبه^(١) . فالنفس إذن حَيّة بالطبع مَيّة بالعرض، والجسم ميت بالطبع حَيّ بالعرض، فإذا انفصل كل واحد منهما من صاحبه خالص للجسم الموت المحض الذي هو طبيعه، وفارقتة الحياة العرضية التي كان استغادها من النفس، وخلصت للنفس الحياة المحضة التي هي طبيعتها، وفارقتها الموت العرضي الذي كان عرض لها من قبل استغراقها في الجسم.

البرهان الرابع : كل شيء مركب من بسائط فيتجه ينحل إلى بسائطه، والإنسان مركب من شيئين : روحاني، وجسماني. ونحن نرى أن الإنسان إذا مات لحق جسمه بجسماني مثله، فكذلك روحانيته يجب أن تلتحق بروحاني مثلهما. وقد صحّ بما قلّمناه من السرايين السالفة أن ذلك الروحاني هو الذي يفيد جسمه الحياة وأنه حَيّ بالفعل، فهو إذن حَيّ بعد مفارقة الجسد لا يعدم الحياة.

(١) يعني حياة عرضية للجسم بإشراق النفس عليه، وموتاً عرضياً للنفس بالمجاشها في الجسم.

البرهان الخامس: معنى الحياة الجسدية عندنا هو مقارنة النفس الجسم واستعمالها إياه. ومعنى الموت مفارقة النفس إياه وتركها استعماله. وقال من زعم أن النفس هالكة بهلاك الجسم: «معنى الحياة أن تكون النفس ذات حس، ومعنى الموت أن تعدم الحس» فنسألهم عن الحس الموجود للنفس طول مقارنتها للجسد: «هل هو ذاتي لها أو عرضي؟» فإن كان ذاتياً لها بطل أن تعدم الحس بعد مفارقتها للجسد، وإن كان عرضياً فلا يخلو أن يكون استفادته من الجسم أو من جوهر آخر مصاحب لها. فإن كان الجسم هو الذي يفيد الحس وجب أن لا يعدم الجسم الحس إذا فارقت النفس؛ وهذا ضد ما نشاهده من حالها وحال جسمها. فإن كانت النفس إنما ستفيد الحس من جوهر آخر روحاني متصل بها وجب أن نسألهم عن ذلك الجوهر الآخر هل هو حساس بذاته أو بجوهر آخر أيضاً ويستمر ذلك إلى ما لا نهاية له، وما لانهاية له بالفعل محال، فثبت أن النفس حساسة بذاتها وجوهرها. وما كان حساساً بذاته وجوهره بطل أن يعدم الحياة. فالنفس إذن حية بعد فراق الجسم.»



إن الباحث عن حقيقة بقاء النفس بعد موت البدن إذا أراد أن يعرف المزيد عنها فإنه يستطيع أن يفيد فائدة كبيرة إذا رجس إلى ما كتبه العلماء والحكماء والتصوفون في هذا الموضوع وهم كثيرون.

منهم العلامة ابن العبري^(١). فمن رأيه أن النفس غير مية ولا يتطرق
القضاء إلى جوهرها. ويعمل ذلك بأن النفس بسيطة والبسيط لا يحل
إلى غيره؛ لأن الذي ينحل فيبطل ذاته يلزم أن يكون فيه شيء يقبل
ذلك الانحلال. وليس في ذات النفس أمران مختلفان يطلب أحدهما
غير ما يطلبه صاحبه. بل من شأن النفس ألا تفنى وإنما هي باقية
ببقاء علتها.

ولا ينتج مما قيل في النفس أنها لا تموت وأنها ليست بجسم
وما شاكلة كون ذلك نقصاً في حقها لأن هذه الصفات سلبية باللفظ
فقط وهي في الحقيقة تدلّ على صفات مثبتة. فإن قولنا مثلاً «إن
النفس لا تموت» هو إثبات الحياة فيها. وقولنا «إنها غير جسم» هو
إثبات قوامها دون الجسم الذي هو خسيس بالنسبة إلى شرف
النفس^(٢).

(١) هو العلامة أبو الفرج اللطفي جمال الدين غريغوريوس بن أمرون الطيب
المعروف بابن العبري (١٢٢٦ - ١٢٨٦) م. كان كثير الاطلاع وحصل علومًا شتى
وانتخبها وانفرد بالتعب في زمانه حتى شئت إليه الرحال بأرض المغرب. وأقيم أسقفًا
على مدينة ملطية، وأخذ عنه كثير من فضلاء المسلمين. ومن مؤلفاته:
كتاب تاريخ مختصر الدول وهو من أشهر التواريخ. وشرح قانون ابن سينا
وقراط وديوسقورس، وكتاب دفع الهم، وديوان شعر في الإلهيات، وغيرها.

(٢) الفصل العشرون من كتاب «مفسلة مختصرة في النفس البشرية»
لابن العبري، تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي، طبع بيروت ١٩١١.

ومن رأى ابن العبرى كذلك أن النفس إذا فارقت الجسم لم يصدق عليها الفساد والهلاك. «فإن النفس بسيطة وإنها ذات واحدة وطبيعتها الحياة، وهي قائمة بذاتها غنية عن موضع توجد فيه. وكل من كان بهذه الصفة فهو باق. فالنفس إذن باقية بعد الفراق». ويقول أيضاً: «لو صدق على النفس الفناء لكان ذلك وهى فى عذاب الجسد أجدر وأحرى لأن المبتلى بأنواع الضيق أسرع إلى الهلاك منه عند الفكاك. ولما لم يصدق عليها الفناء وهى تقاسى مرارة دواعى البدن امتنع عليها ذلك بعد فراق الجسد»^(١).

ويزيدنا ابن العبرى علماً ومعرفة بأن النفس إذا فارقت الجسد لا تفقد صفاتها المختصة بذاتها فيقول: «إن صفات النفس المختصة بذاتها باقية ببقاء النفس، دائمة بدوامها بعد مفارقتها للجسد. وهذا يتبع عن أن العقل والرأى والذهن والفكر والذكر والحى والبسيط هى قوى طبيعية للنفس. والطبيعى دائم بدوام ما هو خاص به فإذا تدوم أيضاً هذه القوى بدوام النفس»^(٢).

ومن رأى ابن العبرى كذلك أن تأثير النفس - فعلها وحركتها باق بعد فراق الجسد. فهو يقول: «إن الفعل والحركة ذاتيان للنفس راكزان فى كيانها فلا يمكن إذن أن يفارقاها البتة. ولكن بعد

(١) نفس المرجع: الفصل الخامس والأربعون.

(٢) نفس المرجع الفصل ٤٦.

فراق الجسد سينقطع عن النفس سبيلها إلى الفعل والتأثير والزيادة في الفضائل والنقص من الرذائل لأن الآلة التي كانت تفعل بها قد بطلت وتعطلت. والصانع لا يتمكن من تميم فعله إلا بآلته. وذلك على مثال الكاتب الماهر إذا عُدمت آله تعطلت صناعته ولم تذهب معرفة الكاتب من نفسه. فكذلك النفس وصفاتها^(١).

ثم يقول ابن العبري إن النفس إذا فارقت جسدها يزيد فهمها وذكرها. وإنما تعرف ذاتها وتعرف أيضاً أنها مخلوقة وسدّل على ذلك بأن «النفس لما كانت كمنوّة بعلائق الجسد ودواعيه وصفاته كان لها قدرة على الفهم والذكر. فعند انسلاخها عنه يلزم أن تزداد هذه القدرة عما كانت عليه أولاً. ولولا ذلك لكان الفعل مع العائق كمثّل الفعل دونه وذلك محال. فيظهر أن النفس عند عدم العائق تدرك وتفهم وتتذكر أكثر من إدراكها وفهمها عند وجود العلائق». ويقول: «إن صفات النفس باقية فيها بعد فراق الجسد. ومن صفات النفس العلم فلا بدّ إذن من القول إن النفس تعرف أن لها خالقاً، وأنها مخلوقة، وأنها اتحدت بالجسد وانتقلت عنه كما أنها تعرف أجزاء هذا الجسد المتبددة في العناصر وتعرف أنها ستتحده به ثانية، وتعرف الملائكة والجن عند خروجها من الجسد. وتعرف

(١) نفس المرجع: الفصل ٤٧.

النفوس الشبيهة بها والمكان الروحاني المعسّد لها. وتعترف وتشعر
بالقرايين والصدقات التي تقرب منها»^(١).

* * *

ومن تكلموا في هذا الموضوع أيضاً «السهورودي»^(٢)، فهو
يقول :

(١) نفس المرجع : الفصول ٤٨ و ٤٩ و ٥٠.

(٢) هو أبو الفتح يحيى بن حبش بن أسيرك الملقب بشهاب الدين السهورودي
المتول بعلب. ولد ببلدة سهورود من أعمال زنجبان من عراق المعجم بين سنة
٥٤٥ هـ و ٥٥٠ هـ. قرأ الحكمة وأصول الفقه على الشيخ مجد الدين الجبلي بمدينة
مراغة إلى أن برع فيها ومجد الدين هذا كان شيخ فخر الدين الرازي وعليه تخرج
وبصحبته انتفع. وكان السهورودي أوجد أهل زمانه في علوم الحقيقة والفلسفة،
بارعاً في أصول الفقه، مفرط الذكاء، وكان علمه أكبر من عقله.

يقول ابن أبي أصيبعة : «لما بلغ الشهاب أن صلاح الدين أمر بخنقه وصلبه
وليس جهة إلى الإفراج عنه اختار أن يترك في مكان منفرد ويمنع من الطعام
والشراب إلى أن يلقى الله تعالى ففعل به ذلك وكان في أواخر سنة ٥٨٦ هـ. بقلمه
حلب وكان عمره نحو ست وثلاثين سنة» والروايات التي تذكر بهذا الصدد كثيرة.
فهناك من يقول إن لذلك الظاهر هو الذي قام بقتله بناءً على أمر والده. ويقال إنه
ندم على فعلته بعد ذلك وقبض على الذين وشوا به وسجنوا وأخذ منهم أسوأ
كثيرة. «وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٣ ص ٢٥٧.

وشذرات الذهب لابن العماد ج ٤ ص ٢٩٠.

وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ١٦٧. وما بينهما».

... والنفس باقية بعد البدن، ومن أقرب ما يحتاج به : أن النفس جوهر غير منطبع، مباين عن البدن، وعلته الفيضة باقية، وليس له مع البدن إلا علاقة شوقية، والعلاقة إضافية، ومن أضعف الأعراض - الإضافية، فإذا بطل البدن تنقطع تلك العلاقة. فلو بطلت النفس ببطلان الإضافة لكان الجوهر يتقوم وجوده بأضعف الأعراض التي هي الإضافة، وهو محال.

ثم النفس إذا كان المعطى لوجودها باقياً، وليس لها مكان ومحل ليكون لها مضادٌ ومزاحم يُسْطَلِّها بضرب من تضاد. والجوهر المباين^(١) الذي ليس بعلة فاعلية مطلقة للشيء تفيض وجوده - لا يلزم من بطلانه بطلان جوهر آخر^(٢) فالنفس باقية.

ومما يحتاج به أن كل شيء يبطل فلا بد وأن يكون له قسوة بطلان، ولا يكون قسوة بطلان الشيء البسيط فيه، فإنه بالفعل من جهة ذاته، ولا يُتصور أن يكون شيء واحد هو فعلاً في ذاته وهو القسوة. فإن قسوة بطلانه يجب أن يكون في قابل له فيه قسوة وجوده وقسوة عتمة، كما للصور والأعراض في حواملها، والنفس لما كانت مجردة لا قابل لها، وهي وحدانية، وبالفعل من قبل ذاتها فلا يتصور أن يكون لها قسوة بطلان أصلاً، لا في ذاتها ولا في غيرها،

(١) أي المباين للنفس.

(٢) أي بطلان النفس.

فلا تنعدم أصلاً، وهذا بعينه يتوجه في كل بسيط لا قابل له،
كأخيول والعقل.

«وهنا شك وهو ما قيل: أليست المفارقات ممكنة الوجود؟
وكل ممكن الوجود ممكن العدم. فلها قوة وجود وعدم. وقد قلتم إن
البسيط الذي لا قابل له ليس له قوة وجود وعدم. وأجاب بعض
التأخرين فقال: إن العقول الفعالة إنما إمكانياتها بالقياس إلى
وجوداتها، بمعنى أنه متى علمت العلة عدمت هي بخلاف ما نحن
فيه، فإن ما نحن فيه هو ما يمكن أن ينعدم مع بقاء علته، وإنما
يكون ذلك بفساد يعرض في جوهره.»^(١)

* * *

وللإمام الغزالي رايه هو الآخر، وهو حجة يعتمد عليه في هذا
الموضوع الذي برهن عليه براهين نقلية وعقلية فيقول:

«.. أما المنقول فيقول تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في
سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله
من فضله﴾^(٢). ومعلوم أن من كان حياً مرزوقاً فرحاً مستبشراً به
لا يكون ميتاً معدوماً. وكذلك قوله تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في

(١) عن كتاب «السهوردي» للأستاذ ساسي الكيالي، سلسلة نوايغ الفكر
العربي، دار المعارف ص ٧٣ و٧٤.

(٢) سورة آل عمران الآيةان ١٦٩، ١٧٠ : ٣.

سبيل الله أمواتٌ بل أحياءُ ﴿١٥٤﴾ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في رياض الجنة » . وقد ترسخ في جميع عقائد أهل الإسلام هذا . فإن رسول المغفرة والرحمة لمن يكون باقياً لا لمن يكون فانياً . وكذلك أهل الصدقة فاعتقادهم أنها تصل إليه . وكذلك المنامات فكل ذلك دليل على أنها باقية .

« أما البرهان العقلي فلأن كل شيء يفسد بفساد شيء آخر فهو متعلق به نوعاً من التعلق . وكل متعلق بشيء آخر نوعاً من التعلق ، فإما أن يكون تعلقه به تعلق المكاني في الوجود أو تعلق المتأخر عنه في الوجود أو تعلق المتقدم عليه في الوجود الذي هو قبله في الذات لا في الزمان . . . فإن كان تعلق النفس بالبدن تعلق المكاني في الوجود وذلك أمر ذاتي له . . لا عرضي فكل واحد منها مضاف الذات إلى صاحبه فليس لا النفس ولا البدن بجوهر ولكنها جوهرا .

« وإن كان ذلك أمراً عرضياً لا ذاتياً فإن فسد أحدهما بسطل العارض الآخر من الإضافة ولم يفسد الذات بفساده . وإن كان تعلقه به تعلق المتأخر عنه في الوجود فالبدن علة للنفس في الوجود ، والعلل أربع : فإما أن يكون البدن علة فاعلية للنفس معطية لها

(١) سورة البقرة آية ١٥٤ : ٧ .

الوجود؛ إما أن يكون علةً قابلة لها بسبيل التركيب كالعناصر للأبدان، أو بسبيل السيطرة كالتحاسن للصمم، وإما أن يكون علةً صورية، وإما أن يكون علة كمالية، ومحال أن يكون علة فاعلية. فإن الجسم بما هو جسم لا يفعل شيئاً وإنما يفعل بقواه ولو كان بذاته يفعل لا بقواه لكان كل جسم يفعل ذلك الفعل...^(١)



وللفيلسوف الكبير نصير الدين الطوسي^(٢) رسالة عن «بقاء النفس بعد فناء الجسد»، كان قد وضعها لتلميذه مؤيد الدين الفلكي المهندس الذي تعاون معه في إنشاء مرصد مراغة. وهي

(١) انظر كتاب «معارج القدس في مدارج معرفة النفس» للغزالي ص ٩٥ -

(٢) نصير الدين محمد بن محمد الطوسي السوزي (١٢٠١ - ١٢٧٢ م.) فيلسوف فارسي له شأن كبير في العلوم الفلسفية والرياضيات والفلك والأرصاد. له فيها مصنفات عامة. وكان تلاميذه كالقطب الشيرازي والنظام النيسابوري والعلامة الحلّي يلقبونه «أستاذ البشر». وقد أحلّه الإفرنج محلاً سلمياً لا يدانيه فيه أي فيلسوف في الشرق حتى إنهم سموا باسمه جبلاً اكتشفوه في كرة القمر تذكيراً لذكري خدمته العلمية. أنشأ مرصداً عظيمًا بمراغة، وكان خزنة ضخمة من الكتب المنهوبة من بغداد والشام والجزيرة في عصر التتر. وكانت له منزلة كبرى في تاريخ الحياة العقلية الإسلامية عند الفرس، ومن مصنفاته في الفلسفة «تجريد العقائد» ويعرف باسم «تجريد الكلام».

مخطوطة نفيسة يسرجع تساريخ كتابتها إلى عام ١١٠٠ هـ.
(١٦٨٨ م.)^(١).

وصيغت هذه المخطوطة كرسالة بدأها بقوله : «قال علامة العالم نصير الملة والدين رسم المولى العالم الفاضل مؤيد الدولة والدين قدوة المهندسين. أن أكتبه شيئاً أفاده الحكماء المهققون في بقاء النفس الإنسانية بعد بوار البدن فلم أجد بدأ من امثال مرسومه، وإن كنت قليل الصناعة في هذه الصناعة. وكان ما يفرض من غياب العلوم فهو في جنب علومه الدقيقة قليل القدر، صغير البنيان، وبدأت بمقدمات يبتنى عليها المطلوب، وسألت من الله العصمة في المقال، والتوفيق بصوالح الأعمال، إنه ملهم العقل، وولى الخير من المبدأ وإليه المعاد.

وجاءت مباحث الرسالة في ثلاثة أمور، أولها إثبات تجرد النفس الناطقة، والثاني إثبات أن مبدع النفس هو الله تعالى، والثالث إثبات بقائها بعد بوار الجسد. . . والذي يهمنا هنا هو الأمر الثالث الذي يقول فيه :

(١) جاء ذكر هذه الرسالة في كتاب «غوات الوفيات» ل محمد بن شاکر بن أحمد الکتبی المتول سنة ٧٦٤ هـ. وفي كتاب «کتج دانش» وهي كلمة فارسية بمعنى «مخزن العرفان»، وهو يبحث عن البلدان والتواريخ وتراجم مشاهير الرجال، ل محمد حسن خان الأديب الفارسی الشهير بالحکیم. وفي كتاب «آثار الشيعة الإمامية» للعالم الجليل عبد العزيز الجواهری.

« . . . وأيضاً لا يجوز أن يكون البدن ولا مزاجه شرطاً في بقاء النفس، لأن النفس هي الحافظة والمبقية للبدن ومزاجه بتدبيرها وإيراد الغذاء عليه بدلاً عما يتحلل منه، فإن كان البدن أو المزاج شرطاً في بقاء النفس لزم الدور . . . أى يتوقف بقاء النفس على وجود البدن. إذ هو شرط في بقائها على الغرض ويتوقف بقاء البدن على وجود النفس لأنها هي الحافظة والمبقية له بتدبير الغذاء عليه بدلاً عما يتحلل.

ثم يقول: «ولما فاضت النفس عن مبدعها على البدن أو تعلقت به على أى المذهبين، كان لم يبق للبدن ولا لشيء مما يتعلق به تأثير عليته ولا تأثير شرطيته في وجود النفس ولا في بقائها فلا تنصر النفس فقدان البدن أو قطع العلاقة بينه وبينها بوجه وتبقى النفس موجودة دائماً بدوام مبدعها ومفيضها لوجوب وجود المعلول مع وجود علته واستحالة انفكاكه عنه وهو المطلوب».

ويقصد الفيلسوف الطوسي بقوله هذا، أن مفيض النفس للبدن وعلتها الموجدة هو الله تعالى عز شأنه، فعلى المذهبين، أى مذهب «أفلاطون» ومذهب «أرسطو» لم يبق للبدن ولا لشيء مما يتعلق به تأثير عليته وتأثير شرطيته لأن مفيضها هو الله تعالى، وكذلك لا يبق له تأثير في بقاء النفس أيضاً لأنه لم يكن علة في وجود النفس فليس علة في بقائها فلا يضر النفس فقدان البدن وقطع العلاقة بينه وبينها.

ولما كانت علتها علة سرمدية فالعلول أيضًا يبقى بقاء علتها على الدوام لأن وجود العلة يستلزم وجود معلوله ويستحيل انفكاكه عنها.

ثم يقول فيلسوفنا الطوسي : « ويوجه آخر نقول كل أمر يكون في شيء من الأشياء بالقوة ثم خرج إلى الفعل وجب أن يكون ذلك الشيء الذي كان فيه ذلك الأمر باقيا عند خروج ذلك الأمر إلى الفعل حتى يصح الخروج من القوة إلى الفعل . وإن انعدم ذلك الشيء عند خروج ذلك الأمر من القوة إلى الفعل لما كان الأمر الذي كان فيه بالقوة خارجًا منه إلى الفعل كما في نطفة الإنسان . فإين الإنسانية في مادتها بالقوة، ولا بد من وجود تلك المادة عند صيرورتها إنسانًا بالفعل وإلا لما كان ذلك الإنسان من تلك النطفة . وصورة النطفة لما كانت عند خروج الصورة الإنسانية إلى الفعل غير باقية لم تكن الصورة الإنسانية في تلك الصورة بالقوة، بسبل امتنع جمعها في تلك المادة . ولذلك لما خرجت هذه إلى الفعل في مادتها فبقيت تلك فيها . وإذا تقررت هذه المقدمة فنقول لو جاز الفناء لكان الفناء فيها حال الوجود بالقوة وإذا خرج الفعل وجب أن تكون النفس مع فنائها موجودة فهذا خلف . إذن ثبت أنه لا يجوز عليها الفناء . »

خصص الفيلسوف بهذا الكلام الفناء على موجود ممكن حال في محل كالصور والأعراض ويكون المحل مستعدا للبقاء مع فناء ذلك الحال وزواله عنه كصورة النطفة الفانية مع بقاء مادة النطفة . والفناء على رايه يختص في الموجودات بما يحل في محل الصورة والأعراض

وما يركب منها كالجسم بوصف الجسمية الفاني بقناء صورته التي هي أحد جزأيه، وبين ثافي الاعتراضين بقوله : « فإن قيل لو كانت النفس مركبة من حال ومحل كالجسم لجاز عليها العدم»، ودفعه لقوله : « قلنا لا يجوز العدم على الجزء الذي هو المحل ونحن نعني بالنفس ذلك الجزء دون ما يحل فيه، فإن النفس كما تقرر شيء يرتسم فيها كثير من الصور بحيث يحدث فيها ويزول عنها وهي لا تنعدم بانعدامها. وإذا ثبت أن النفس ليست بصورة للبدن ولا بعرض حال في، ولا بمركبة من حال ومحل ثبت أن القناء لا يجوز عليها.

ومعنى هذا بإيجاز أن النفس لو كانت مركبة من حال ومحل كالجسم المركب من الصورة الحالة والمادة التي حلت الصورة فيها وقوام الجسم بهذين الجزأين لتوجه الاعتراض. ولكن النفس ليست مركبة منها بحيث يكون قوامها بها كالجسم وذلك أننا نرى أن كثيراً من الصور يحدث فيها ويزول عنها فهي مع ذلك الحدوث والذوال باقية ثابتة. فالنفس هي المحل الذي يحدث فيها الصور ويزول عنها. وإذا ثبت أن النفس ليست بصورة للبدن ولا بعرض حال فيه ولا بمركبة من حال ومحل فالقناء لا يجوز عليها.

ونظم الفيلسوف رسالته بقوله : « هذا ما حضر في الوقت مع اشتغال القلب مما أستند به من كلام العلماء في هذا الباب والله أعلم بحقيقة الحال».

ومن قبل هؤلاء الذين ذكرناهم من أمثال ابن سينا والبطلينيوس
وابن العبري والسهروردي والغزالي والطوسي وغيرهم ممن لم نذكر،
كان هناك الشيخ اليوناني « أفلوطين » الذي كان له رأى هو الآخر
يعتد به فقد اهتم بهذا الموضوع اهتمامًا كبيرًا وأفرد له فصلًا قائمًا بذاته
في الميمر التاسع من « كتاب أثولوجيا » بعنوان « في النفس الناطقة
وأنها لا تموت »، يقول فيه بعد البسملة :

« إنا نريد أن نعلم : هل الإنسان كله واقع تحت الفساد والفناء ؟
أم بعضه يبيد ويفنى ويفسد، وبعضه يبقى ويدوم ؟ وهذا البعض، هو
ما هو ؟ فمن أراد أن يعلم ذلك علمًا صحيحًا فليتحصن فحصنًا طبيعيًا
كما نحن واصفون . فنقول : إن الإنسان ليس هو شيئًا مبسوطًا
ساذجًا، لكنه مركب من نفس وجسم، والنفس غيرالجسم، والجسم
إما أن يكون بمنزلة آلة النفس، وإما أن يكون متصلًا بها بنوع آخر
من الأنواع . غير أنه بأي نوع الاتصال كان، فإنه ينقسم الإنسان
بقسمين وهما نفس وجسم . ولكل واحد من هذين القسمين طبيعة
غير طبيعة الآخر، والجسم مركب غير مبسوط، والمركب قد ينحل
ويتفرك إلى الأشياء التي تركب منها، فالجسم إذن يتفرك وينحل
ولا يبقى . وقد يشهد العيان بذلك؛ وذلك لأن البصر يرى كيف
يذبل وينحل ويفسد بأنواع كثيرة من الفساد، ويرى كيف يفسد بعض
الأجسام بعضًا، وكيف يستحيل بعضها إلى بعض، وكيف يتغير
بعضها إلى بعض، ولا سيما إذا لم تكن النفس الشريفة الكريمة الحية

موجودة فيها، أعنى في الأجسام. وذلك أنه إذا بقى الجرم وحيداً
ولست فيه النفس الشريفة لم يقدر على البقاء ولا أن يكون واحداً
متصلاً لأنه ينحل ويتفرق في الصورة والهوى، وإنما يتفرق فيها لأنه
منها مركب. وإنما ينحل الجسم ويتفرق ولا يبقى متصلاً على حالة
واحدة لمفارقة النفس؛ لأن النفس هي التي ركبته من الهيسولى
والصورة، فإذا فارقت لم يلبث أن يتفرق إلى الأشياء التي ركب منها.

«ونقول إن الأجسام أجزاء بأنها أجسام. فمن أجل ذلك انقسمت
وتركبت وتجزأت أجزاء صغاراً. وهذا نوع من أنواع فسادها. فإن
كان هذا على ما وصفنا، وكان الجسم جزءاً من أجزاء الإنسان،
وكان واقعاً تحت الفساد، فلا محالة أن الإنسان كله بأسره ليس بواقع
تحت الفساد، بل إنما يقع تحت الفساد جزء من أجزائه فقط. والجزء
الواقع تحت الفساد هو الآلة. وإنما صارت الآلة تفسد ولا تبقى، لأن
الآلة إنما تُراد لحاجة ما، والحاجة إنما تكون زماناً، وفي طبيعة الآلة
أن تفسد ولا تبقى، وذلك لأن صاحب الحاجة الذي يستعمل الآلة
لحاجة ما إذا فرغ من حاجته التي من أجلها استعمل الآلة رفض
الآلة وتركها. فإذا رفضها ولم يتعهد ما خمدت ولم تبقى على حالتها.

وأما النفس فإنها ثابتة قائمة على حالة واحدة لا تفسد
ولا تبديد، وبها صار الإنسان هو ما هو، وهى الشيء الحق الذى
لا كذب فيه إذا أضيف إلى الجسم. وحاجة النفس إلى الجسم

كحاجة الجسم إلى الهول، وكحاجة الصانع إلى الآلات. فالإنسان إذن هو النفس، لأنه بالنفس يكون هو ما هو، وبها صار ثابتاً دائماً، وبالجسم صار فانياً فاسداً، وذلك لأن كل جرم مركب، وكل مركب واقع تحت الانحلال والفساد، فكل جسم إذن منحل واقع تحت الفساد.

«فإن قال قائل: فإن النفس واقعة تحت الفساد أيضاً لأنها جسم من الأجسام، غير أنها جسم لطيف رقيق - قلنا له: ينبغي أن نفحص عن ذلك ونعلم: هل النفس جسم، أم ليست بجسم؟ فنقول: إن كانت النفس جسماً من الأجسام فلا محالة أنها تنفرد وتنحل. فإلى أي الأشياء تنحل؟ - فإنه كان ذلك مما ينبغي أن نعلمه، فنقول: إن كانت الحياة حاضرة للنفس اضطراراً لا تفارقها ولا تباينها، وكانت النفس جسماً، فلا محالة أن لكل جسم من الأجسام حياة لا تفارقه بأن تكون دائماً معه. فإن كان هذا هكذا رجعنا فقلنا: إن كانت النفس جسماً، وكان الجسم مركباً، فإنه لا محالة من أن تكون النفس مركبة، إما من جرمين، وإما من أجرام كثيرة، وأن يكون لكل جرم منها حياة غريزية لا تفارقه، وإما أن تكون لبعضها حياة غريزية ولا حياة لبعضها، وإما أن لا تكون لشيء منها حياة غريزية البتة. وإن كان لجسم منها حياة غريزية فذلك الجسم هو النفس حقاً. فنسأل عن ذلك الجسم أيضاً فنقول: هل هو مركب من أجسام كثيرة؟ ونصِّفه بالصفة التي وصفناه بها

أنفأ، وهكذا إلى ما لا نهاية، وما لا نهاية له فليس بمعلوم مفهوم.

إلى أن يقول :

«إن هذا العالم لا يجرى بالبخت والاتفاق، بل إنما يجرى بكلمة نفسانية عقلية بغاية الحزم والتدبير. فإن كان هذا هكذا، قلنا إن النفس العقلية هي القيمة على هذا العالم. والأشياء الجرمية إنما هي بمنزلة جزء لها، وهي التي تلزم هذا العالم بالهيئة التي عليه، كما تلزم أجرام الحيوان فإنها ما دامت النفس فيها فهي باقية ثابتة، فإذا فارقتها لم تثبت ولم تبقى بل تفسد وتهلك. فكذلك العالم كله، مسادامت النفس فيه، باقٍ دائم، فإن فارقت، هلك ولم يبق على حالة واحدة. وقد شهد لنا على ذلك الجرميون؛ لأن الحق يضطرهم إلى الإقرار بذلك وتضطرهم الأشياء إلى أن يعلموا أنه ينبغي أن يكون، قبل الأجرام كلها، البسوط والمركبة، شيء آخر هو النفس. غير أنهم خالفوا الحق بأن جعلوا النفس ربحاً روحانية وناراً روحانية، وإنما وصفوا النفس بهذه الصفة لأنهم رأوا أنه ليس يمكن أن تكون القوة الشريفة الكريمة دون النار أو الريح، وظنوا أنه لا بد للنفس من أن يكون لها مكان تثبت فيه. فلما ظنوا ذلك جعلوا مكانها الريح والنار لأنها أرق وألطف من سائر الأجرام. وقد كان من السواجب أن يقولوا أن الأجرام هي التي تفرص على طلب المكان فيها وتثبت في قوى النفس، والنفس هي مكان الأجرام، وفيها ثباتها ودوامها،

لا الأجرام مكان النفس؛ لأن النفس علة والجرم معلول، والعلة قد تكتفى بنفسها ولا تحتاج في ثباتها وقوامها إلى المعلول، والمعلول يحتاج إلى العلة لأنه لا ثبات له ولا قوام إلا بها - أي بالعلة.

«ونقول: إنهم إذا سئلوا عن النفس فقالوا إنها جرم، ثم وردت عليهم المسائل التي لا ملجأ لهم منها، ولم يقدرُوا على أن يثبتوا أنها في الأجرام المعروفة - التجأوا حينئذ إلى الشيء المجهول الذي قد أكثروا فيه القول وكرروه، فاضطروا إلى أن يجعلوها جرمًا غير هذه الأجرام المعروفة، إلا أنه بزعمهم جرم قوى فعّال وشموه روحًا. فنردّ عليهم ونقول: إنا قد وجدنا أرواحًا كثيرة لا أنفس لها. فإن كان هذا هكذا، فكيف يمكن أن تكون النفس روحًا من الأرواح لما لا نفس له. فإن قالوا: إن الروح التي في هيئة ما هي النفس - سألتهم عن هذه الهيئة ما هي، فإنه لا عمالة من أن تكون الهيئة هي الروح بعينها، أو أن تكون كيفية فيها. فإن كانت هي الروح لزمهم قولنا الأول: إنا قد نجد أرواحًا ليست بذات النفس وإن كانت الهيئة كيفية الروح كان الروح مركبًا غير مبسوط، فلا يكون بينها وبين الأجرام فرق البتة»^(١).

* * *

ويقودنا موضوع بقاء النفس بعد انفصال الجسد إلى السؤال عما

(١) انظر كتاب «الفلوطين عند العرب» ص ١٢١ وما بعدها.

إذا كانت النفس تشتاق بعد الموت إلى الجسد وتتمنى عودتها إليه
فيجئنا الجريطي على ذلك بحكاية طريفة يسردها لنا قائلاً :

«ذكروا أن بعض الملوك زوج ابنه واتخذ لحاشيته دعوة حافلة
أسبوعاً لا يعرفون غير الأكل والغناء والفرح والسرور. وكان ابن
الملك يجلس في صدر المجلس وينظر إلى ما فيه الناس من الفرح.
فإذا نام أكثر الناس ومضى شطر الليل قام فدخل حجرة الخلوة،
فاتفق ليلة أنه سكر وسكروا شئ في الدار حتى خرج من بابها
وخرج من المدينة إلى الصحراء فلم يدر أين هو فرأى ضوءاً من بعد
فقصده فإذا باب مردود وضوء داخله. فدخله فإذا بقوم نيام
مطروحين كل واحد ملتف بإزار فظن أنها حجرة العروس والنيام
جواربها فجعل يناديهم فلم يجبه منهم أحد فظن أن ذلك لشدة
سكرهم فالتمس العروس بينهم حتى وقعت يده على واحدة أطراهن
ثوباً وأطبين ريحاً فظن أنها عروسه فاضطجع معها فجعل ليلته
يقرصها ويمتص لسانها ويتلذذ ولا يرى لذة أطيب مما هو فيه. فلما
أصبح وأفاق من سكره فتح عينيه فإذا هو في ناووس^(١) خراب وإذا
أولئك النيام جيف الموت، وإذا هو بجانب عجوز ماتت حديثاً وعليها
كفن جديد مخيط مبخر والصديد سائل منها وقد تلوث بدنه وثيابه.
فهاه ذلك وقام مرعوباً مسمئاً وخرج يجرى حتى نزل نهراً فغسل

(١) الناووس : القبر (المدفن).

ما عليه رومي ثيابه وليس ثيابًا نظيفة. فهل ترى بعد ما نجاه الله
من مبيته تلك الليلة في الناووس يشتاق إلى معاودة المعجوز المنتنة مرة
أخرى؟

هكذا حال النفوس بعد مفارقتها للأجسام وصعودها إلى ملكوت
السماء...^(١)

(١) عن كتاب «قصيدة النفس لابن سينا شرح العلامة زين السدين
عبد الرؤف المنادي» ص ٩٤.

خلاف في الرأى.. بين النفس والروح

اعتبر بعض الفلاسفة أن كلاً من الروح والنفس والعقل جوهر مستقل عن الآخر. وبعضهم اعتبر أن جميعها جوهر واحد. والرأىان وإن اختلفا فإنها يؤديان إلى نتيجة واحدة حيث إن الروح تمدّ النفس والعقل بأشعة أنوارها الحيوية التي بدونها لا يبقى لها ولا للجسم وجود أصلاً.

كما يرى آخرون أن النفس والروح كلمتان مترادفتان لكائن واحد.. ويستدلون على ذلك بالأية الكريمة: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها، والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾ (سورة الزمر ٤٢ : ٣٩).. والأنفس هنا جمع نفس ويفسرونها بالروح. ويؤيدون ذلك بقول بلال للنبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن شهاب «أخذ بنفسى يا رسول الله الذى أخذ بنفسك».

ويقولون أيضاً بأن تكوين الكلمتين دالٌّ بذاته على ألا فرق بينهما. فالنفس من النفس، والروح من الريح، والنفس والريح كلاهما يشيران إلى الهواء الذي يأخذه الكائن شهيقاً ويخرجه زفيراً. وذلك لأن آباءنا الأولين واضعوا هذه الألفاظ كانوا قد تصوّروا أن الحياة إن هي إلا هذه الأنفاس.

ولا شك على الإطلاق في ارتباط الروح بالهواء في بديهة المؤمنين الأولين بالأرواح. فإن الكلمات التي تطلق عليها في العربية تدل كلها على ذلك وهي الروح والنفس والنسمة. وكلمة «بسيشي» *Psyche* اليونانية معناها النفس كمعنى «سبريت» *Spirit* في اللغات الأوروبية الحديثة. وفي ذلك دلالة لا شك فيها على أصلها الأول من بدهة الإنسان^(١).

وقد ذهب فريق إلى أن الإنسان الحساس هو غير هذا الجسم المرئي. وأنه يمكن أن يخرج في أحوال خاصة نادرة، من البدن في حال النوم فيشاهد العالم ويرى الملكوت على حسب صفاته. وقال أفلاطون: إن النفس جوهر محرك للبدن. وقد حدّد صاحب المنطق

(١) كتاب «الله» للأستاذ عيسى العفصاد، الطبعة الخامسة، دار المعارف

النفس من وجه - أنها كمال الجسم الطبيعي، وحدها من وجه آخر بأنه حتى بالقوة. فلا فرق بين النفس والروح^(١).

رأى سيدي عبد الكريم الجيلي :

وكان من رأى سيدي عبد الكريم الجيلي^(٢) أن النفس تسمى في الاصطلاح على خمسة أضرب : نفس حيوانية، ونفس أمارة، ونفس لؤامة، ونفس ملهمة، ونفس مطمئنة. وكلها أسماء الروح إذ ليس حقيقة النفس إلا الروح، وليس حقيقة الروح إلا الحق. فالنفس الحيوانية تطلق على الروح باعتبار تدبيرها للبدن فقط. وأما عند الفلاسفة فالنفس الحيوانية هي الدم الجارى في العروق، وليس هذا بمذهبنا. ثم النفس الأمارة تسمى به باعتبار ما يأتيه من المقتضيات الطبيعية الشهوانية بالانهماك في الملاذ الحيوانية وعدم المسالة بالأوامر والنواهي. ثم النفس الملهمة تسمى به باعتبار ما يلهمها الله تعالى به

(١) راجع كتاب «سر الحياة في النفس والإنسان» للمسعودي. وكتاب «النهي والكمال»، وكتاب «طب النفوس» وكتاب «النفس الناطقة» وتقسيمها إلى نفوس فاضلة، ونفوس أصحاب الفراسة والقيافة والأثر وغير ذلك، والكلام على تشريحها وممرتها، ورسالة ابن العربي في النفس البشرية.

(٢) أحد متصوفة القرن الرابع عشر الميلادي. توفي عام ٨٠٥ هـ وهو صاحب كتاب «الإنسان الكامل» وهو غير سيدي عبد القادر الجيلاني صاحب كتاب «الفيض الرحماني» أحد أئمة الصوفية في القرن السادس، وقطب الطريقة القادرية.

من الخير. فكل ما فعله النفس من الخير هو بالإلهام الإلهي، وكل ما فعله من الشر هو بالاختصاص الطبيعي..

ويأخذ سيدى الجبلى في وصف كل نفس من هذه الأنفس حتى ينتهى إلى أن النفس إذا انقطعت عنها الخواطر المنمومة مطلقاً تسمى مطمئنة، ثم إذا ظهر على جسدها الآثار الروحية من طي الأرض، وعلم الغيب، وأمثال ذلك فليس لها اسم إلا الروح.

ثم يقول في كتابه: «الإنسان الكامل في علم الأواخر والأوائل»، إن الأرواح إذا تشكلت بصورة من الصور لا سبيل إلى أن تنخلع تلك الصورة عن نفسها بأن تعود إلى البساطة الأصلية هذا ممتمنع لكنها في قوتها أن تتصور بكل صورة على عدم مفارقتها للصورة الأصلية التي لها حكمة من الله تعالى. وتلك الصورة الروحانية هي كلمات الله تعالى التي تقوم بالموجودات كما تقوم الروح بالجسد. فإذا برزت من الغموض العلمي إلى الجلاء العيني تبقى قائمة بنواتها في الوجود. فجميع أجسام العالم من المخلوقات من المعدن والنبات والحيوانات والألفاظ وغير ذلك لها أرواح قائمة بها على صورة ما كانت عليه أجسامها. حتى إذا زال الجسم بقيت الروح مسجدة لله تعالى. باقية بإبقاء الحق لها: لأن الحق لم يخلق الأرواح للفتاء وإنما خلقها للبقاء، فالكاشف إذا أراد كشف أمر من أمور الوجود تتجلى عليه تلك الأرواح التي هي كلمات الله تعالى فيعرفها بأعيانها، وأسمائها،

وصفاتها، وأوصافها. فإن كل روح من أرواح السجود متجلية في الملابس التي كانت أوصافاً، ونعوتاً، وأخلاقاً على الجسم الذي كانت تدبره.

رأى الإمام ابن القيم الجوزية :

ولقد أفرد الإمام شمس الدين بن القيم الجوزية في كتابه «الروح»، فصلاً عن حقيقة النفس، وهل هي جزء من أجزاء البدن، أو عرض من أعراضه، أو جوهر مجرد؟.. وهل هي الروح أو غيرها؟.. فيقول: إن هذه مسائل قد تكلم الناس فيها من سائر الطوائف واضطربت أقوالهم فيها، وكثر فيها خطأهم. وهدى الله أتباع الرسول وأهل سنته لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم^(١).

قال أبو الحسن الأشعري في مقالاته: «اختلف الناس في الروح والنفس والحياة، وهل الروح هي الحياة أو غيرها، وهل الروح جسم أم لا؟». فقال النظام إن الروح هي جسم وهي النفس وزعم أن الروح حي بنفسه، وأنكر أن تكون الحياة والقوة معنى غير الحى القوى. وقال آخرون بأن الروح ليس شيئاً أكثر من اعتدال السطائح الأربع. ولم يرجعوا من قولهم (اعتدال) إلا إلى المعتدل ولم يشبثوا في

(١) انظر كتاب «الروح لابن القيم» الطبعة الثالثة ١٩٦٧ ص ١٧٥.

الدنيا شيئاً إلا الطبائع الأربع التي هي : الحرارة، والسيرودة،
والرطوبة، واليبوسة.

وقال آخرون إن الروح معنى خامس غير الطبائع الأربع، وأنه
ليس في الدنيا إلا الطبائع الأربع والروح. واختلفوا في أعمال الروح
فثبتها بعضهم طباعاً وثبتها بعضهم اختياراً.

وقال آخرون إن النفس معنى غير الروح، والروح غير الحياة،
والحياة عنده عرض. ولقد قال بذلك أبو الهذيل، وزعم أنه قد يجوز
أن يكون الإنسان في حال نومه مسلوب النفس والروح دون الحياة.
واستشهد على ذلك بقوله تعالى : ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها
والتي لم تمت في منامها﴾ (سورة الزمر ٤٢ : ٣٩).

وقال آخرون : إن النفس هي النسيم الداخل والخارج بالتنفس،
أما الروح عرض، وهو الحياة فقط، وهو غير النفس، وهذا قول
القاضي أبو بكر بن الباقلاني ومن اتبعه من الأشعرية.



وهناك من أهل الحديث والفقه والتصوف من يقول إن الروح
غير النفس. لمقاتل بن سليمان يقول إن للإنسان حياة وروحاً ونفساً
فإذا نام خرجت نفسه التي يعقل بها الأشياء، ولم تفارق الجسد بل
تخرج كحبل ممتد له شعاع، فيرى الرؤيا بالنفس التي خرجت منه،

وتبقى الحياة والروح في الجسد فيه يتقلب ويتنفس^(١). فإذا حرك رجعت إليه أسرع من طرفة عين. فإذا أراد الله عز وجل أن يميتَه في المنام أمسك تلك النفس التي خرجت.. وقال أيضاً: إذا نام خرجت نفسه فصعدت إلى فوق، فإذا رأت الرؤيا رجعت فأخبرت الروح، ويخبر الروح فيصبح يعلم أنه قد رأى كيت وكيت.

وقال بعض آخر إن النفس طينية نارية، والروح نورية، روحانية. وقال آخرون إن الروح لاهوتية، والنفس تاسوتية، وأن الخلق بها ابتلى..

وقال فريق آخر من أهل الأثر: إن الروح غير النفس، والنفس غير الروح. وقوام النفس بالروح، والنفس صورة العبد، والهوى والشهوة والبلاء معجون فيها. ولا عدو أعدى لابن آدم من نفسه فالنفس لا تريد إلا الدنيا، ولا تحب إلا إياها. والروح تدعو إلى الآخرة، وتؤثرها. وجعل الهوى تبعاً للنفس، والشيطان تبع النفس والهوى، والملك مع العقل والروح، والله تعالى يمدّها بإلهامه وتوفيقه.

رأى قسطا بن لوقا:

ومن الأراء المفيدة في هذا الموضوع والتي يجب أن نعيها اهتماماً

(١) تعنى هذه الحالة في العلم الحديث: انفصام الحبل الأثيرى الذى يصل ما بين الجسدين الأثيرى والمادى.

كبيراً، رأى قسطا بن لوقا^(١)، الذي أثبت في مخطوطته: «رسالة في الفرق بين الروح والنفس». وكان قد ألفها لعيسى بن أفرخشاه، وهي من الآثار النفيسة التي تدلُّ على ما كان لصاحبها من سعة المعرفة بحكمة اليونان كأرسطو وأفلاطون، وبطبيهم كبقراط وجالينوس، فجمع في أوراق قليلة عدَّة معلومات متفرقة في كتبهم. ولقد تكلم ابن لوقا في رسالته هذه بعد المقدمة عن: معرفة الروح الحيواني، والروح النفساني، والقول في النفس، وحدِّ النفس لأفلاطون، وتجريك النفس للبدن على أي جهة هو، والقول فيها حدُّه أرسطوطاليس للنفس، والقول في قوى النفس. ثم ختم رسالته بالقول في الفصل بين الروح والنفس. ولما لهذا الفصل من أهمية في موضوعنا رأينا أن نثبته فيما يلي:

«وإذ قد شرحنا ما هية الروح والنفس، فلنخبر الآن عن الفصل

(١) هو قسطا بن لوقا البعلبكي، أحد مشاهير علماء الدولة العباسية. قال صاحب الفهرست (ص ٢٩٥) بعد ذكره لحنين بن إسحق العبادي: «كان يجب أن يقدم على حنين لفضله ونبله وتقدمه في صناعة الطب، ولكن بعض الإخوان سأل أن يقدم حنين عليه. وكلا الرجلين فاضل. وكان بارعاً في علوم كثيرة منها الطب والفلسفة والهندسة وغيرها. جيد العبارة بالعربية».

ونقل ابن أبي أصيبعة (١: ٣٤٤) عن سليمان بن حسان أن قسطا مسيحي النحلة، طبيب حاذق نبيل. وكان فصيحاً باللسان اليوناني والسرياني والعبري. وأصلح منقولات كثيرة، وأصله يوناني.

ولقسطا من المؤلفات ما يربو عن الخمسين كتاباً فقد أكثرها.

بينهما. وذلك أن الروح جسم والنفس غير جسم. وأن الروح يُجسّد في البدن، وأن النفس لا يجسّد في البدن. وإن الروح إذا فارق البدن بطل، والنفس تبطل أفعالها من البدن ولا تبطل هي في ذاتها. وإن النفس تحرك البدن وتنبئه الحسن، والروح يفعل ذلك بغير الحسن. وإن النفس تنيل البدن والحياة بتوسط الروح، والروح يفعل ذلك بغير توسط وأن النفس تحرك البدن وتنبئه الحسن والحياة، بأنّها أوّل علّة ذلك البدن وفاعلة فيه. والروح يفعل ذلك وهو علّة ثانية. فالروح إذن علّة قريبة لحياة البدن وحسّه وحركته ويأق أفعاله البعيدة. وذلك أن بدن الإنسان لما كان مركباً من أجزاء صلبة وهي العظام والغضاريف والأعصاب والعروق وما أشبه ذلك، ومن أعضاء رطبة وهي الأخلاط، أعنى الدم والبلغم والمرتين، ومن الروح أعنى السدى في تجويفات القلب والدماغ والشريانات. وكان الروح أرقاً هذه الأجزاء والطفها وأصفاها، كان أشدّ قبولاً لأفعال النفس من سائر أجزاء البدن. وعلى قدر رقتة ولطفه وصفائه قبل من فعل النفس؛ ولذلك قال الفلاسفة: إن قوى النفس تسابعة لمزاج البدن؛ لأن الإنسان إذا كان مزاج بدنه في غاية الاستواء كانت أفعال النفس في غاية الاستواء ومن قصر مزاج بدنه أعنى الأعضاء التي فيها الروح - عن الاعتدال المخصوص بها، قصر أيضاً الروح عما يجب له من الرقة واللطف، وقصرت أفعال النفس فيه بتلك النسبة ولذلك صارت قوى النفس في الصبيان ناقصة، وفي النساء ضعيفة.»

وكذلك في الام التي غلبت على أمزجتها الحرارة والبرودة كالزنج والصقالبه ومن أشبههم . وكذلك اختلفت أفعال النفس فصار في الروح الذي في القلب أفعال الحياة والنفس والبيض فقط؛ إذ أن ذلك الروح أقرب الأرواح إلى الحياة، وأقلها لطفًا، ورقة، وصفاء ثم الذي في التجويفات التي في مقدم الدماغ صار فيه الحس والتخيل لما ناله من زيادة الرقة واللطف على ما في الروح الذي في القلب . ثم الروح الذي في التجويف الذي بعده فيه الفكر والروية بفضل ما ناله من اللطف والرقة على الروح الذي في مقدم الدماغ . ثم الروح الذي في مؤخره صار فيه الذكر والحفظ لما يحتاج في ذلك من فضل الرقة واللطف أيضًا إذا كان يريد أن يذكر شيئًا قد مضى وبعد هذه .

رأى فضيلة الأستاذ محمد متولى الشعراوى :

ولا يفوتنا هنا أن نذكر آراء بعض علمائنا الأجلاء المعاصرين ممن لهم وزهم ولهم مكانتهم في العالم العربي . ومن هؤلاء العلماء الشيخ محمد متولى الشعراوى وزير الأوقاف وشئون الأزهر . فهو يقول في لقاء مع الأستاذ أحمد زين مسدير تحرير جريدة «الأخبار» في ١٥/٧/١٩٧٧ ما يلي :

«هناك الروح، وهناك النفس . . . والنفس هي التقاء الروح بالمادة

فإذا التقت الروح بالمادة، فهذه هي النفس؛ ولذلك فإن التكليف للنفس الإنسانية. التكليف ليس للروح وحدها. ولا للمادة وحدها، ولكن للنفس. فحين تلتقى الروح بالمادة تنشأ الحياة الأرضية. أو تنشأ النفس.. حين نفهم كلمة الروح، فإننا نقصد ما به حياة المادة. ما به حياة المادة هذا.. أهو إرادة الله له أن يحيا؟.. أهو مجرد إرادة الله؟.. فإذا سلب الله هذه الإرادة ذهبَت الحياة وانتهت واختفت؟ أم هو عنصر يدخل مع المادة ويكون منها الحياة لأجل معين، ثم تنتهي هذه الحياة؟..

هناك عدة آراء للعلماء في هذا الموضوع. ونعود إلى الآية الكريمة: ﴿وَسأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾.. حينما سئل الرسول عن الروح، كان السائلون يريدون أن يعرفوا ما هي الروح ومن ماذا تتكون.. وهنا ردَّ الله تعالى أن علمكم لن يصل إلى هذا أبداً. أنتم تسألون ما هي الروح، وأنا أقول لكم إن علم البشرية لن يصل إليها.. لن يصل إليها جزئاً وبقيناً والذي كان يجب أن يسألوا عنه من أين جاءت هذه الروح، لأنك أنت استفدت بهذه الحقيقة. حقيقة الروح سواء علمت بها أو لم تعلم. والانتفاع بالشئ لا يقضى أو لا يقضى العلم به.. قد تبدو هذه العبارة متناقضة، ولكنني سأفسرهما لك:

الأمى يستخدم الكهرباء، ويضع يده على الجرس فيحدث رنيناً. ويضع يده على مفتاح النور فتضيء الحجرة.. هل يعرف هذا الرجل

الذى لا يقرأ ولا يكتب حقيقة الكهرباء؟.. أبداً ولكنه ينتفع بها. بل أنت في حياتك ملايين الأشياء التى تنتفع بها ولا تعرف شيئاً عن حقيقتها. هل يعرف كل من يركب الطائرة حقيقة الطيران؟ هل يدرى كل من يستخدم التلفون كيف تم المكالمات التليفونية؟.. هل يعرف كل من يستخدم القمر الصناعى مثلاً فى اتصاله بالخارج، كيف تم الاتصالات عن طريق القمر الصناعى؟.. هل يدرى كل من يشاهد التليفزيون الحقيقة التى يتم على أساسها نقل الصورة؟.. أبداً ملايين يركبون الطائرات ويجهلون نظرية الطيران. عشرات الملايين يتحدثون فى التلفون ولا يعرفون شيئاً عن حقيقته. ومئات الملايين فى العالم ينتفعون بالتليفزيون دون أن يعرفوا شيئاً عن حقيقته. إذن انتفاعك بالشئ لا يعنى بالضرورة أنك تعرف حقيقته. بل قد تجهل حقيقته تماماً. ومع ذلك تنتفع به.. إذن أنت تنتفع بالروح، وإن كنت تجهل ما هى. ولا يعنى أن الله قد حجب حقيقتها عنك. إنك لا تستطيع أن تنتفع بها. إنها فى داخلك.. فى داخل كل جسد حى.. فيه الحياة، والحركة، والقدرة».

رأى الأستاذ عبد الكريم الخطيب:

ومن علمائنا الأجلاء أيضاً من يعتد برأيه الأستاذ عبد الكريم الخطيب، ولقد أبدى رأيه فى هذا الموضوع فى كتابه القيم «التفسير

القرآن للقرآن» (الجزء الثاني عشر، صفحة ١١٦١/١١٦٧) تقتطف منه ما يلي :

«... وهنا نودّ أن نقف قليلاً بين يدي قوله تعالى ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾.

فقد أشارت الآية الكريمة إلى أن في الإنسان نفساً، وأن هذه النفس تُردّ إلى الله، على حين يترك الجسد لمصيره في التراب.

فالإنسان إذن نفس وجسد.. وهما طبيعتان مختلفتان، فالنفس من العالم العلوي، والجسد من عالم التراب، وأنها إذ يجمع الله بينهما بقدرته، فيجعل منها - سبحانه - كائناً سويّاً هو الإنسان، فإنه سبحانه بقدرته كذلك يحفظ كل منها طبيعته، حتى إذا انتهى الأجل الذي قدره الله لاجتماعهما افترقا، فلهحق كل منها بعسله الذي هو منه.. النفس إلى عالمها العلوي، والجسد إلى عله الترابي..

وقبل أن نتحدث عن ماهية النفس، و عن الآثار التي تتركها في الجسد، أو يتركها الجسد فيها، حين اجتماعهما، نودّ أن نشير إلى كائن آخر، يعيش مع الجسد والنفس، هو الروح. فقد أشار القرآن الكريم إلى الروح، فقال تعالى : ﴿ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي﴾. واذن فهناك : الجسد، والروح، والنفس.. وثلاثتها هي الإنسان..

لما الجسد؟ .. وما الروح؟ .. وما النفس؟ ..

وليس ثمة خلاف في أن الجسد، هو هذا الكيان من اللحم،
والعظم، والدم، والذي هو المظهر المادي للإنسان.

أما الروح، وأما النفس، فهما قوتان غيبتان تسكنان إلى هذا
الجسد، فيكون بهما معاً هذا الإنسان الحسّ، السميع، البصير،
العاقل، المميز بين الخير والشر، والنافع والضار.

والسؤال هنا: هل الروح والنفس حقيقة واحدة، أم هما
حقيقتان؟ وإذا كانتا حقيقتين، فهل هما من طبيعة واحدة أم من
طبعتين مختلفتين كالاختلاف الذي بينهما وبين الجسد؟.

إن القرآن الكريم يحدثنا عن الروح، وعن النفس..

وفي حديث القرآن عن الروح، نجد أنها نفحة الحياة في
الإنسان، وأنها من روح الله، فيقول سبحانه في خلق آدم: ﴿فإذا
سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ (٢٩: الحجر).
ويقول سبحانه: ﴿ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه﴾ (٩: السجدة).
ويقول سبحانه في خلق عيسى عليه السلام: ﴿ومريم ابنة عمران
التي أحصنت فرجها فننفخنا فيه من روحنا﴾ (١٢: التحريم).

فالروح هي مبعث الحياة في الإنسان، وهي التي تخرج هذا
الجسد الهامد إلى عالم الحياة والحركة.

والإنسان في هذه الحدود، لا يخرج عن كونه حيواناً، ذا حسد
حي، يتنفس ويتحرك، ويطلب الغذاء الذي يحفظ حياته.

فهل للحيوان روح كهذه الروح التي تلبس الإنسان، وتسكوه
حياة وحركة؟

إننا إذا رجعنا إلى قوله تعالى عن الروح : ﴿قل الروح من أمر
ربي﴾ نجد أن الروح التي تلبس الكائن الحي - من إنسان أو حيوان
- هي روح، وهي من أمر الله!

ولكننا إذ نتظر في قوله تعالى في خلق آدم : ﴿فإذا سويته
ونفخت فيه من روحي﴾. وقوله سبحانه : ﴿ثم سواه ونفخ فيه من
روحي﴾، نجد مزيداً من الفضل والإحسان والتكريم للإنسان، بإضافة
روحه إلى الله سبحانه وتعالى. وهذه الإضافة تضيء على روح الإنسان
صفاءً إلى صفاء، وقوة إلى قوة.

وإنه إذا كان لا حديث للعلم في هذا الأمر الغيبي، فإن المشاهدة
تدفعونا إلى القول بأن الأرواح التي تلبس الكائنات الحية بما فيها
الإنسان ليست على درجة واحدة من القوة التي تنبعث منها في
الكائن الحي، وفي الآثار التي تحدثها فيه.

ففي عالم الحيوان مثلاً، نجد من الحيوانات ما لا تكاد تُحسّ فيه
الحياة، كالديدان مثلاً، كما نجد حيوانات تكاد تعقل كالقردة. وبين

هذه وتلك أقطاب كثيرة من الحيوانات التي تلبس عالم الحيوان. وهذا يعني أن اختلافًا ما بين روح وروح؛ إن لم يكن في النوع، ففي القدرة، وفي الدرجة.

ومن جهة أخرى، فإننا نجد في عالم البشر أناسًا لا يتعدون كثيرًا عن عالم الحيوان، بينما نجد الذكاء والألمعية والعبقرية في أناس آخرين.

وهؤلاء وأولئك جميعًا يلبسون أرواحًا من مورد واحد، هي نفخة الله سبحانه وتعالى في الإنسان. وهذا يعني أن الاختلاف في الأرواح البشرية ليس في النوع، وإنما في القدر والدرجة أيضًا. بمعنى أن الاختلاف بين إنسان وإنسان في العقل، والذكاء، والبصيرة، هو اختلاف في القدر الذي كان للجسد من عالم الروح، وفي الكمية - إن صحَّ هذا التعبير - التي قاضت عليه من هذا العالم!!

وهذا أيضًا ما يشير إليه الفلاسفة في حديثهم عن الروح، وأن كل جسد إنما تلبسه روح خاصة به، مقسّمة بحسب استعداده الفطري، وقدرته على احتمال ما يفاض عليه منها.

وإذن فهذا الاختلاف بين الكائنات الحيّة، ومنها الإنسان، هو أثر من آثار الروح التي لبسته، وأنه بقدر حفظه من الروح - قدرًا لا نوعًا - يكون حفظه من الترقى في سلم الحياة.

وإذا كان لنا أن نشبه عالم الروح بمولد كهربائي عظيم، وكان لنا أن نشبه الأجسام بلمبات الكهرباء، على اختلاف قوتها، بما هو دون الشمعة، إلى آلاف الشمعات، كان لنا أن نتمثل الأجسام، أو اللمبات الكهربائية، وقد اتصلت بالمولد الكهربائي العظيم، فنأخذ كل جسم أو كل لمبة بقدر قوته من النور الكهربائي، أو من عالم الروح !!

وعلى هذا نرى أن الكائن الحي، جسد وروح، وأن الإنسان كذلك جسد وروح، وإن كان حظه من عالم الروح - قدرًا لا نوعًا - أكبر من أي كائن حي آخر في غير عالم الإنسان.

إذن لما النفس؟

أهي الروح الإنسانية، سميت بهذا الاسم، للفرقة بين روح الإنسان وروح الحيوان.. إذ كان للإنسان النصيب الأوفى من هذا النور العلوي المقاض على الأحياء؟ أم هي شيء مضاف إلى خلق الإنسان، به صار الإنسان إنسانًا، بعد أن أصبح بالروح حيوانًا؟

يحدث القرآن الكريم عن النفس، على أنها كائن له وجود ذاتي مستقل، ومعنى آخر، إن القرآن يخاطب الإنسان في ذات نفسه، باعتبار أن النفس هي القوة العاقلة المدركة فيه، فيقول سبحانه: ﴿ونفس وما سواها، فأنهها فجورها وتقواها﴾، ويقول جل شأنه: ﴿بآياتها النفس المطمئنة، أرجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في

عبادى وادخل جنتى ﴿ (٢٧/٣٠ : الفجر)، ويقول سبحانه : ﴿ومن يتعد حدود الله فقد ظم نفسه﴾ (١ : الطلاق).

فالنفس هنا، وفي مواضع أخرى كثيرة من القرآن، هي الإنسان العاقل، المكلف، وهي الإنسان الذى يُسوق منه الخير أو الشر، والهدى أو الضلال. ثم هي الإنسان بجميع شخصياته، جسداً وروحاً.

وإن بالفهم الذى يستريح إليه العقل في شأن النفس، هو أنها شيء غير الروح، وغير العقل.. وأنها هي الذات الإنسانية أو الإنسان المعنوى، إن صح هذا التعبير. إنها تتخلق من لقاء الروح بالجسد.. إنها التركيبة التى تخلق في الإنسان ذاتية يعرف بها أنه ذلك الإنسان بأحاسيسه ووجدانه ومسيرته.. النفس هي ذات الإنسان، أو هي شخصات الإنسان التى تنهى عن ذاته.



من آراء علماء الغرب :

أما علماءنا المعاصرون الذين ألفوا في علم النفس الحديث فإنهم لم يجعلوا بين النفس والروح والعقل فرقاً.. وكذلك علماء النفس الغربيون فإنهم لا يفرقون بين النفس والروح أيضاً، حتى أن الأستاذ «بوراك» قال في كتابه : «مبادئ الفلسفة» : إن الناس قد اعتادوا

أن يفهموا من الروح أو النفس معنى غامضاً لاهوتياً. وأما نحن فنفهم منها مجموع قوى الإرادة، والفكر، والوجدان.

ويقول هنرى برجسون : « إن كل واحد منا مؤلف من جسد خاضع لنفس القوانين التي تخضع لها سائر أجزاء المادة. إذا دفعته تقدّم وإذا سحبته تقهقر، وإذا رفعته ثم تركته عاد فسقط. غير أن هناك إلى جانب هذه الحركات التي تحدثها علّة خارجية إحدائنا آلياً، هناك حركات أخرى يبدو أنها تأتي من الداخل، وتمتاز عن السابقة بأنها لا يتنبأ بها، وتدعى بالحركات « الإرادية »، فما هي علّة هذه الحركات ؟ هي ما يدعوه كلُّ منا بلفظة « أنساء ». وما هي هذه « الأنا » ؟ .. هي شيء يخيل إلينا، خطأ أو صواباً، أنه يصفو على الجسم الذي انضم إليه، ويفوقه في الزمان وفي المكان، أما في المكان فلأن جسد كل منا محدود بحجمه على حين أننا نمضي بالإدراك، وبالبصر على وجه الخصوص، إلى أبعد من جسمنا بكثير، فنبلغ النجوم. وأما في الزمان فلأن الجسد مسادة، والمادة مسجودة في الحاضر، وهب الماضي يخلف فيها بعض الآثار، فليست هذه الآثار آثاراً للماضي إلا في نظر شعور يدركها، ويفسر ما يدرك على ضوء ما يتذكر. إن الشعور هو الذي يحفظ هذا الماضي وما يزال يتلفف به ما سار الزمن، ويحيى معه مستقبلاً يساهم في خلقه.

وما الفعل الإرادي نفسه، الذي ذكرناه منذ لحظة، إلا مجموعة

من الحركات تعلمناها من التجارب السابقة، وتوجهها اتجاهًا جديدًا في كل مرة هذه القوة الواعية التي يلوح أن وظيفتها هي أن لا تنفك تأتي إلى الدنيا بجديد. نعم، إنها تخلق شيئًا جديدًا في خارج ذاتها؛ لأنها ترسم في المكان حركات لا يتنبأ بها ولا يمكن التنبؤ بها، وهي تخلق شيئًا جديدًا في داخل ذاتها كذلك؛ لأن الفعل الإرادي يتردد إلى الذي أراده، ويبدل طبع الشخص الذي صدر عنه بعض التبديل ويحقق بضرب من المعجزة هذا النوع من خلق الذات لذاتها، هذا الخلق الذي يبدو أنه هو الغرض من الحياة الإنسانية.

والخلاصة إذن هي أننا ندرك عدا الجسم الذي تحمته في الزمان اللحظة الحاضرة، وحمته في المكان الحيز الذي يشغله ويعمل كأنه آلة، ويستجيب للمؤثرات الخارجية ميكانيكيًا، ندرك شيئًا يمتد إلى أبعد من الجسد في المكان، ويدوم عبر الزمان ويطلب من الجسم بل يقتضيه حركات ليست آلية فيتنبأ بها، بل حرة فلا يمكن التنبؤ بها. هذا الشيء الذي يصفو على الجسم من كل الأطراف، ويخلق أفعالاً فيخلق نفسه، من جديد، هو «الأناء»، هو النفس، هو الروح، ما دامت الروح ليست إلا قوة تستطيع أن تستخرج من ذاتها أكثر مما تحوى، وتعطى أكثر مما تأخذ، وثهب أكثر مما عندها. ذلك ما يتراءى لنا، ذلكم هو المظهر»^(١).

(١) عن كتاب «الطاقة الروحية» لهنرى برجسون، ترجمة الأستاذ سليم

الدروبي، الطبعة الثانية ١٩٦٣ ص ٢٤/٢٥.

ويقول برجسون أيضاً : « إن التجربة تبين لنا أن حياة النفس، وإن شئت فقل حياة الشعور، مرتبطة بحياة الجسم، وإن ثمة تضامناً بينهما، ولا شيء غير ذلك. ولكن هل ثمة من أنكر هذه النقطة؟ إلا أنه شتان بين أن نقرر ذلك وبين أن نقول إن الدماغ معادل العقلي، وإن في الإمكان أن نقرأ في الدماغ كل ما يجرى في الشعور المقابل. إن الثوب الذي عُلق على مسار متضامن مع هذا المسار، فإذا وقع المسار وقع هو معه، وإذا اهتز اهتز، وإذا كان رأس المسار حاداً جداً تمزق. ولكن ليس ينتج عن هذا أن كل جزء من أجزاء المسار مقابل جزءاً من أجزاء الثوب، ولا أن المسار معادل للثوب ولا أن المسار والثوب شيء واحد. نعم إن الشعور معلق بالدماغ، ولكن ليس ينتج عن ذلك أبداً أن الدماغ يرسم كل تفاصيل الشعور، ولا أن الشعور وظيفة للدماغ. وكل ما تسمح لنا المشاهدة والتجربة (أى العلم) بتقريره هو أن ثمة علاقة بين الدماغ والشعور. فما هي هذه العلاقة؟ هنا إنما نستطيع أن نتساءل هل قدمت الفلسفة ما كان يحق للناس أن ينتظروه منها. فعلى عاتق الفلسفة إنما تقع مهمة دراسة حياة النفس في كافة مظاهرها. فواجب الفيلسوف الذي تفرس على الملاحظة الداخلية أن يغمس إلى أعماق نفسه، ثم يتابع في عودته إلى السطح، الحركة التدرجية التي يسترضى بها الشعور وينبسط، وتهيأ لأن يتشر في المكان...»^(١).

(١) نفس المرجع ص ٢٩.

النفس والروح عند اليوجيين :

أما اليوجيون والمتصوفة المنوود فعندهم النفس إنما هي قطرة من أوقيانوس الروحية غير المحدود. ويؤمنون بأن هناك قبساً من الله في كل إنسان يزداد اشتعالاً كلما اقترب المرء من خصاله. . . فالشاعر والفيلسوف والعالم واليوجي والروح التي تفوق هؤلاء استتارة تحوى منه أكثر مما يحويه رجل الشارع. والنور أو الله الساكن فينا يلمع بقدر ما تنفتح عنه الأغلفة المادية إلى أن يجين الوقت الذي يتجلى الله فينا في كامل مجده، وإذا ذلك لن تقوم عوائق روحية. ونستطيع بإرادتنا التحليق إلى الافاق العليا لنلم بأسرار تلك العوالم وقواها، وتصيح النفس واحداً مع اللانهاى، وتندمج القطرة في المحيط وتصبح المحيط ذاته. فإن كل نفس هي إله في دور التكوين تدثرت بأغطية مادية معتمة. فهي كالشمس التي تسطع بلمعائها خلف الغيوم^(١).

ويقولون إن النفس في الآونة الحاضرة أسيرة القلعة الثلاثية الجدران وهي : الأجسام المادية، والكوكبية، والسببية. بالإضافة إلى أغلال العقل والوهم والصفات الثلاثة والعناصر الخمسة والمظاهر الخمسة والعشرين للعناصر الخمسة، والتي جميعها تكبله.

(١) ويتفق شهاب الدين السهروردي المقتول مع هذا الرأي في كتابه «مياكل النور»، فيقول إنه كلما اقترب العبد من مصدر النور كان أكمل. ويرى أن اقرب الخلق، إلى هذا النور هو الرسول صلى الله عليه وسلم.

ويؤكدون أن كلمة « النفس » معناها أنت نفسك بجسمك الأثيرى فقط، وأن جسمك الأثيرى يسكن جسّدك المادى، وهو مندمج به كما يدمج الماء بالدقيق، والسكر بالماء..

ويصفون النفس بأنها « مركز وعى »، وذلك لأنهم لا يجدون خيراً من هذا الوصف؛ لأن فيها القيس الإلهى تحيط به حجب، وهذه الحجب على درجات وأشكال، من جوهر العقل والطاقة والمادة. وحتى بعد أن نترك الجسد (عند الموت) لا تتخلص النفس من المادة فإن لها مراكب أو أجساماً من المادة الشفافة في درجات مختلفة من الصفاء.

أما كيفية مولد النفس فإن بعض النفوس التى سمّت وبلغت المستويات التى تستطيع منها أن تطل على الكثير من أحداث الكون، فسبب ذلك إرادة إلهية تشبه الرغبة الملحة فى الإنسان. يريد الله فيكون ما يريد، ويحدث ذلك المظهر، ويمدّ يده أن ما يحدث ليس إرادة بالمعنى الذى نعرفه للكلمة، ولكننا لا نجد له تسمية أخرى أو وصفاً آخر.

* * *

وأما الروح فى تعاليم فلسفة اليوجا فهى ذلك الجزء الصغير من المطلق الذى يبدو منفصلاً عن المطلق، وما هو بمنفصل عمن الواحد.. هو المبدأ الاسمى فى كل نفس حتى أحطّ النفوس فيها ذلك

القبس. إنه فينا أبداً لا يزيد ولا ينقص، ولكننا نحن نزداد إبصاراً لنوره كلما تقدمنا وارتقينا على السلم درجة بعد درجة.. إن الروح موجود دائماً لا يتغير ولا يتبدل ولكن وعى الإنسان ينمو مقترباً من الروح، ولا بد أن يندمج يوماً فيه، وهذا هو هدف النفس وغاية التدرج والتقدم، والغرض من كل جهاد وكفاح.

وتنص هذه الفلسفة على أن الروح إنما هي عبارة عن شعاعة واصله من الذات العلية، أو شعلة من الروح القدس أو نفحة من روح الله تسرى في كياننا الأثيرى وتمنحه الحياة. أما الجسد فهو حتى بالشعاعة لأنه مندمج بالنفس الأثيرية. وهذه الروح أو هذه الشعلة يحيا المخلوق سواء كان إنساناً أو حيواناً أو نباتاً أو جماداً أو ملائكة هذه الشعاعة هي سر الحياة الغامض، «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً»^(١).

هذه الروح هي سر الحياة، هي مادة الحياة، هي الحياة نفسها وبعد الانتقال (الوفاة) يترك الجسم الأثيرى ومعه الروح، الجسم المادى الفانى، حيث يتلاشى ويتحول إلى عناصره الأولى. أما الجسم الأثيرى ومعه الروح فيحيا ويعيش في عالمه الروحى الأثيرى إلى أن يشاء له الله في تطوره ما يشاء.



(١) انظر كتاب «اليوجا ينبوع السعادة» للأستاذ عباس المسيرى، ص ١٣٤.

ولقد جعل رُوحِيو الغرب بين الروح والنفس فرقاً جليلاً؛ فالروح عندهم هي المقيضة على النفس سر الحياة، والنفس هي المدبّرة لأمر البدن. وما البدن إلا آلة للحقيقة الإنسانية تستعمله لترقية هويتها الذاتية إبان ظهورها في العالم العضوي. وإلى ذلك يشير أبو العلاء المعري في شعره:

قلمت ظفري تارات وما جسدي إلا كذاك متى فارق السروحا
يانفس ياطائراً في سجن سالكة لتصبحن بجمد الله مسروحا

وفي هذا الصدد يقول العالم الروحاني الكبير «آلان كارديك» في مؤلفه «كتاب الأرواح»:

«... والنفس حسب رأي البعض، هي أساس الحياة المادية العضوية. وليس لها وجود ذاتي، وتنتهي بانتهاء الحياة. وهذه تسمى بالمادية الخضة. وفي هذا المعنى وبالمقارنة، يقول هذا البعض إن الأداة أو الآلة المشروخة التي لا يصدر عنها صوت، ليس لها نفس. ومن هذه الآراء ما يعتبر النفس نتيجة لا سبباً. ويرى آخرون أن النفس، وهي أساس العقل، أي القوّة المدركة، عامل عالمي يستمد كل كائن جزءاً منها. ومن رأي هؤلاء أنه لا يوجد في الكون إلا نفس واحدة فقط يتشتر منها شرارات توزعها بين مختلف العقول طوال مدة الحياة. أما بعد الموت فتعود كل شرارة إلى المنبع العام، المشترك، حيث تندمج في الكل. فهي أشبه بالروافد والأنهار التي ترجع مياهها إلى

البحر من حيث أنت. وتختلف هذه الآراء عن سابقاتها. فإننا - حسب هذا الاعتقاد - يوجد فينا ما هو أكثر من المادة وأن شيئاً ما يظل باقياً فينا إلى ما بعد الموت. ولكن هذا أيضاً يعنى أن شيئاً لن يبقى. فلعدم وجود فردية لا يوجد لدينا شعور بأنفسنا..

«ومعنى هذا السراى أن النفس العالمة العامة إن هى إلا الله الواحد. وكل كائن إنما هو جزء منبثق من الذات العلية. وهذا شيه بالرأى القائل بوحدة الوجود.

«وثمة آخرون يرون أن النفس كائن أخلاقى بارز مستقل عن المادة، ويحتفظ بفرديته إلى ما بعد الموت. وهذا المعنى، بدون أى اعتراض، أكثر شيوعاً؛ لأنه تحت اسم أو آخر يعتبر فكرة هذا الكائن الذى يعيش فى الجسد وأنه فى حال من الاعتقاد الإلهامى مستقل عن كل تعليم عند الشعوب مهما تكن درجة مسدنتهم. والنفس - فى هذا المذهب - هى السبب وليست النتيجة. وهذا هو الرأى السائد عند الروحانيين»^(١).



وينتهى بعض المفكرين بتعريف الروح بثلاثة تعريفات مهمة حسب

(١) راجع النص كاملاً فى كتاب «الروح والخلود بين العلم والفلسفة» للمؤلف بسلسلة «أقرأ» مترجماً عن النسخة الفرنسية لكتاب «الأرواح».

ما تؤديه من الوظائف في هذا الوجود. فبحسب كونها أصل الحياة والحركة والنطق ومصدر الشعور لجميع الحواس فهي «الروح»؛ وبحسب كونها مصدر الإرادة في الإنسان ومحل اكتساب الأخلاق والأفعال وإصدارها فهي «النفس»، وبحسب كونها مصدر التعقل والتفكير والتدبير واكتساب العلوم والمعارف والتجارب وغير ذلك فهي «العقل».

وفي هذا المعنى يقول العارف بالله السيد سلامة حسن الراضي في كتابه «الإنسانية»: «إن الإنسان من حيث روحه ليس بجسم ولا عرض، ولا يحتاج إلى فراغ يشغله. مثل العقل فإنه لا يحتاج إلى مكان يحلّ فيه. والروح والعقل واللبّ والفكر والنفس جميعها واحدة والأسماء مختلفة بالاعتبارات. فباعتبار التجرد يسمى «روحاً»؛ وباعتبار اتصاله بالجسم يسمى «نفساً»، وباعتبار تقلّبه في أطواره يسمى «قلباً»؛ وباعتبار أنه الخلاصة يسمى «لبّاً»؛ وباعتبار تفكيره يسمى «فكراً»؛ وهكذا يسمى: حافظته، ومصورة، وحسّاً مشتركاً ومخيّلة...».



والخلط بين النفس والروح شائع لعدم تصور هذين السكّاتين ومعرفة علاقة كل منهما بالآخر. مع أن القرآن الكريم فصل بينهما فصلاً حاسماً، وأكد ذلك في كثير من سورته وآياته، مما لا يجوز معه

ان يخلط الباحث بين النفس والروح، او ان يعتبرهما كائناً واحداً..
ففي الآية الكريمة التي جاءت على لسان السيد المسيح: ﴿تعلم ما في
نفسى ولا أعلم ما في نفسك﴾، وقوله تعالى: ﴿ويحذركم الله
نفسه﴾، وقول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم: «والسدى نفسى
بيده...»، نرى أن النفس تعنى الذات. ولو كانت النفس هي الروح
فليس من المعقول أن يقول «وقتل نفساً».. فغير المعقول أن تكون
النفس هنا هي الروح.. والله أعلم.

أقسام النفس في القرآن الكريم

يرى المحقق في القرآن فصلاً واضحاً بين النفس والروح، فالنفس أنواع شتى فهي خاضعة للتطور والتكيف والتخلق. أما الروح فهي جوهر الخلود والوجود، الحاكمة على الكيان الإنساني جسداً ونفساً وعقلاً. ولها مجال بحث قادم، فلنذكر الآن ما ورد عن النفس في القرآن الكريم وهو القول الفصل في الموضوع :

للنفس عدة صفات، ذكر الله تعالى ثلاثاً منها في كتابه الكريم وهي :

الأمارة؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾^(١) وهي أرزها..

(١) سورة يوسف آية ٥٣.

واللّوامة؛ قال تعالى : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة، ولا أقسم
بالنفس اللّوامة ﴾^(١)، وهي أوسطها..

والمطمئنة؛ قال تعالى : ﴿ يأتيها النفس المطمئنة، أرجعى إلى ربك
راضية مرضية ﴾^(٢)، وهي أشرفها..

أما الأمانة فهي الموافقة للشهوات الشيطانية الظلمانية التي ينشأ
عنها جميع الأفعال الذميمة. وكونها أمانة بالسوء يفيد المبالغة؛ وسبب
ذلك أن النفس من أول حدوثها قد ألقت المحسوسات والثقت بها.
فلما شعورها بعالم المجردات وميلها إليه فذلك لا يحصل إلا نادراً.
قال الإمام ابن عربى : « خلقت النفس على جلبة الأمانة بالسوء
طبعاً. فإذا تركت على طبعها فلا يأت منها إلا الشر، ولا تسأمر
إلا بالسوء. ولكن إذا رحمها ربها ونظر إليها بعين العناية بقلبها من
طبعها ويجعل أمانتها مبدلة بالمأمورية، وشريرتها بالخيرية، وإذا تنفس
صبح الهداية في ليلة البشرية، وأضاء أفق سماء القلب صارت لواءة
ولامت نفسها على ما صدر منها من القبائح والعيوب فتندم وتتوب.
وإذا طلعت شمس الهداية من أفق العناية صارت النفس ملهمة
فألمها فجورها وتقواها. وإذا بلغت شمس العناية وسط سماء الهداية

(١) سورة القيامة الأيتان ١، ٢.

(٢) سورة الفجر الأيتان ٢٧، ٢٨.

وأشرقت الأرض بنور ربها صارت النفس مطمئنة مستعدة لخطاب ربها بقربه ﴿ارجعني إلى ربك راضية مرضية﴾^(١).

وأما النفس اللوامة فهي المتعرضة للنفس الأمارة الشهوانية، وهي الزاجرة لها عن قبيح أفعالها. فإذا صدر من الأمارة فعل ردىء تعرضت لها ولامتها على ما صدر منها من القبائح والعيوب وزجرتها عنه.

وأما النفس المطمئنة فهي المستقرة الثابتة المتيقنة بالحق فلا يخالجهما ريب؛ لأنها استنارت بنور القلب فتحلّت بالأخلاق الحميدة، وتخلت عن الأخلاق الذميمة. والاطمئنان لا يحصل إلا بالله وذكره والتفكير في الذات العالية الشريفة والصفات الشاخصة المنيفة. قال تعالى: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾. لأن القلوب أربعة: قلب قاس، وهو قلب الكافر والمنافق باطمئنانه بالدنيا. قال تعالى: ﴿ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها﴾^(٢) وقلب ناس، وهو قلب المسلم اللذتب، قال تعالى: ﴿فمنى ولم نجد له عزماً﴾^(٣). فاطمئنانه بالتوبة ونعيم الجنة. قال تعالى: ﴿فتاب عليه وهدى﴾^(٤). وقلب مشتاق،

(١) سورة الفجر آية ٢٨. (من كتاب «إزالة اللبس عن حقيقة النفس».

(٢) سورة يونس آية ٧.

(٣) سورة طه آية ١١٥.

(٤) سورة طه آية ١٢٢.

وهو قلب المؤمن المطيع، فاطمئنانه بذكر الله. قال تعالى: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾^(١). وقلب وحداني، وهو قلب الأنبياء وخواص الأولياء باطمئنانه بإسائه وصفاته. قال الله تعالى لخليله: ﴿أولم تؤمن، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾^(٢) بتجليك له فأكون بك محيى الموت؛ ولهذا إذا تجلى الله تعالى لقلب العبد يطمئن به فينعكس نور الاطمئنان من مرآة قلبه إلى نفسه فتصير النفس مطمئنة به.

أما أقسام النفس الأخرى فهي كما جاء بها السيد إدريس ابن الشريف الحسيني العلوي في مخطوطه النادر «إزالة اللبس عن حقيقة النفس»:

«النباتية، والحيسوانية، والإنسانية، والنساطقة، والفسدية، والرحمانية، ونفس الأمر، والشجية».

«أما النباتية فهي كمال أول بجسم طبيعي. والمراد بالكمال ما يكمل به النوع في ذاته. ويسمى كمالاً أولاً كهيئة السيف للمحددة أو في صفاته. ويسمى كمالاً ذاتياً كسائر ما يتبع العوارض مثل القطع للسيف، والحركة للجسم، والعلم للإنسان، وغير ذلك».

(١) سورة الرعد آية ٢٨.

(٢) سورة البقرة آية ٢٦٠.

« وأما الحيوانية فهي كمال أول لجسم طبيعي متحرك بالإرادة.
« وأما الإنسانية فهي كمال أول لجسم طبيعي يدرك الكلّيات
ويقول الأفعال الفكرية.

« وأما الناطقة فهي الجوهر المجرد عن المادة في ذاتها، مفارقة لها
في أفعالها. فإذا سكنت تحت الأمر من غير التفاضل للشهوات ولا
نظر للشوق فهي المطمئنة. وإذا لم يكن سكونها تاماً ولكنها تتعرض
لتنفس الشهوانية لكي تردّها عن قبض أفعالها فهي اللسّامة. وإن
ركنت إلى اللذات واسترقتّها الشهوات فهي الأتارة.

« وأما القدسية فهي التي لها ملكة استحضر جميع ما يمكن للنوع
أو قريباً من ذلك على وجه يقيني، وهذا غاية الحق وهو سرعة
انتقال الذهن من المبادئ إلى المطالب، ويقابله الفكر وهو أدنى مراتب
الكشف. ثم لا يزال العبد مترقياً في هذه الدرجة حتى يصير مطلقاً
على ما وراء الحجب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجوذاً
وشهوذاً.

« وأما الرحمان فهو عبارة عن الوجود العام المنبسط على الأعيان
عينا وعن الهيولى الحاملة لصور الموجودات. والأول ترتب على الثاني.
سمى به تشبيهاً لنفس الإنسان المختلف بصور الحروف مع كونه هواء
سابقاً في نفسه، وعبر عنه بالطبيعة عند الحكماء، وسميت الأغيار

كلمات تشبيهاً بالكلمات اللفظية السرافعة على النفس الإنسانى بحسب
المخارج. وأيضاً كما تدل الكلمات على المعاني، كذلك تدل أعيان
الموجودة على موجودها وأسمائه وصفاته وجميع كمالاته المشابهة له بحسب
ذاته ومراتبه.

« وأما نفس الأمر فهي عبارة عن العلم الذاق الحساوى لصور
الأشياء كلها كلية وجزئية، عينية كانت أو علمية.

« وأما النفس الشجية فهي الغائبة عن نفسها، الغريقة في بحر
الحبة الإلهية، والصفات العالية من غير التفات للشئ. »^(١)

(١) يتفق ذلك مع رأى لرسطو في النفس فيما يتعلق بالنفوس الثلاثة (النباتية،
والحيوانية، والناطقة).

مراتب النفس

للنفس في تطورها إلى الكمال سبع مراتب يسميها القوم مقامات. والنفس هي واحدة وتسمى بأسماء تضاف إليها بحسب تدرجها في الكمال، رتبها شيخنا السيد محمود أبو الفيض المنوفي كما يلي: (١)
(النفس في مرتبتها الأولى تسمى أمانة بالسوء، وهي التي تميل دائما إلى الغرائز والشهوات. ﴿إن النفس لأمانة بالسوء﴾. فإذا جاهدها صاحبها وخالفها، فعنت للحق، واجتنبت المحظورات، قد ترجع إلى سابق طاعتها، وتلوم نفسها. وحيث تكون النفس في المرتبة الثانية، وهي اللوامة، قال تعالى: ﴿لا أقسم ببيوم القيامة، ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ إذا أخذها صاحبها بالمجاهدة والثبات على الحق، مالت إلى عالم القدس وبصرها الله بمواقع فجورها وتقواها.

(١) انظر كتاب «معالم الطريق إلى الله» ص ٢٨٥/٢٨٦. وكتاب «لمع اليقين في الكشف عن مناهج الفيضين» ص ٤٢/٤٣.

وحينئذ تسمى بالنفس الملهمة وهي السرية الثالثة. قال تعالى :
 ﴿ ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها ﴾ فإذا اطعمت إلى
 أوامر البصيرة وتبدلت صفاتها المذمومة بالصفات الحمودة تخلقت
 بأخلاق الله، وسميت حينئذ النفس المطمئنة، وتلك هي السرية
 الرابعة، قال تعالى : ﴿ يأتينا النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك
 راضية مرضية ﴾. وهذه الدرجة هي أول الهدى الأعظم ومبدأ طريق
 الوصول إلى الله. فإذا أدركت السالك العناية ورضيت نفسه بأفعال
 خالقها - عطاء، ومنعاً، وإبتلاء، واجتباء - حينئذ تسمى راضية،
 وهي المرتبة الخامسة. وهنا تبدو له حجب من الأنوار بعد أن كانت
 من الظلمات. فإذا كان عمله طاعة واحتساباً وصلاًحاً بذل الله
 سيئاته حسنات، وفتح على نفسه أبواباً من التذوق والإلهامات
 والتجليات، سميت عند ربها مرضية، وهي المعنية بقوله تعالى :
 ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾، وهذه المرتبة السادسة. فإن نادته
 ظلال الموجودات الإمكانية التي يستوى فيها طرفاً الوجود والعدم ﴿ إنما
 نحن فتنة فلا تكفر ﴾ سمع لسان حالها يقول : ﴿ وأن إلى ربك
 المنتهى ﴾ ثم علم علم اليقين أن الأطياف لا تغني عن الأنوار، وأن
 المظاهر لا تثنى العنان عن الحقائق وأن ما ماله للفناء لا يغني شيئاً
 عما ماله للبقاء، سمع النداء حينئذ من بارئ الأرض والسماء :
 ﴿ يأتينا النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في
 عبادي وادخلي جنتي ﴾، ويكون مجلسها حينئذ في مقعد صدق عند

ملك مقتدر». وفي هذه الرتبة تكون الكمالات لها نعتاً وسجية؛ ولذا تسمى هذه الرتبة بالنفس الكاملة وهي السابعة. «وهناك ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

والكمال هنا، وعلى هذه الأرض، كمال نسبي، فأقل الناس نقصاً أكثرهم كمالاً، وأن أكمل الخلق هنا أدراهم بعيوب نفسه.

وعن أبي لهيعة عن خالد بن يزيد بن سعيد بن أبي هلال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية : ﴿قد أفلح من زكّاه﴾، وقف ثم قال : «اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وزكّها فأت خيراً من زكّاه».

والنفس بهذا المعنى في توضيح آيات القرآن أقرب إلى تفصيل علماء النفس عنها، ووصف مجالاتها من الغرائز والحاجات، وأقسامها من النفس الباطنة أو «الهم» أو العقل الباطن، والنفس العليا أو الأنا الأعلى، والنفس الوسطى أو النفس المتطورة، وكلها مجالات للنفس كما وصفها القرآن. ولا شك أنها غير الروح التي يقول القرآن عنها : ﴿قل الروح من أمرى﴾، وغير الروح التي يقول عنها : ﴿يلق الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾، وذلك له مجال آخر.

ويذكر ابن الفارض ثلاث أسئلة للنفس في معراجها الروحي يصح أن نصف الأولى منها بأنها عادية طبيعية، والثانية بأنها غير عادية وغير طبيعية، والثالثة بأنها فوق العادة وفوق الطبيعة.

والأولى هي حالة الشعور أو الوعي التي يتمتع بها الناس جميعاً في أثناء يقظتهم. وهذه متعددة النواحي، وهي التي يطلق عليها الصوفية «حالة الصحو».

والثانية هي فقدان ذلك الوعي أثناء الوجد الصوفي وهي المسماة «حالة السكر».

والثالثة حالة وعي ثان يرتفع فيها الوجد الصوفي إلى أعلى درجاته وهي المسماة حالة «صحو الجمع» أو «الصحو الثاني»^(١).



ولقد جعل العلامة شمس الدين أبي عبد الله بن قيم الجوزية للنفس أربع دور، كل دار أعظم من التي قبلها:

«وأنت إذا تأملت السنن والآثار في هذا الباب، وكان لك بها فضل اعتناء، عرفت حجة ذلك ولا تظن أن بين الآثار الصحيحة في هذا الباب تعارضاً، فإنها كلها حق يصدق بعضها بعضاً. لكن الشأن في فهمها ومعرفة النفس وأحكامها وأن لها شأناً غير شأن البدن، وأنها مع كونها في الجنة فهي في السماء وتتصل بفناء القبر وبالبدن فيه وهي أسرع شيء حركة وانتقالاً وصعوداً وهبوطاً. وأنها تنقسم إلى مرسله ومحبوسة وعلوية وسفلية. ولها بعد المفارقة صحة

(١) عن كتاب «الانوار» في التصوف الإسلامي وتاريخه؛ تأليف الأستاذ رضولد نيكولسون وترجمة الدكتور أبو العلا عفيف سنة ١٩٥٦.

ومرض ولدّة ونعيم وآلم أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير، فهنالك الحبس والآلم والعذاب والمرض والحسرة. وهنالك اللسنة والراحة والتعم والإطلاق. وما أشبه حالها في هذا البدن بحال ولد في بطن أمه، وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن إلى هذه الدار.

فلهذه الأنفس أربع دور، كل دار أعظم من التي قبلها :

الدار الأولى : في بطن الأم، وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث^(١).

والدار الثانية : هي الدار التي نشأت فيها وألفتها واكتسبت فيها الخير والشر وأسباب السعادة والشقاوة.

والدار الثالثة : هي دار البرزخ وهي أوسع من هذه الدار وأعظم بل نسبتها إليه كنسبة هذه الدار إلى الأولى.

والدار الرابعة : هي الدار التي لا دار بعدها، دار القرار، وهي الجنة أو النار. والله ينقلها في هذه الدور طبقاً بعد طبق حتى يبلغها الدار التي لا يصلح لها غيرها، ولا يليق بها سواها. وهي التي خلقت لها وهيئت للعمل الموصول لها إليها. ولها في كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الدار الأخرى. فتبارك الله فاطرها

(١) المشيمة، والرحم، والبطن.

ومنشئها ومحبيها ومحييها ومسعدنها ومشقيها، السدى فسات بينها في درجات سعادتها وشقاوتها، كما فوات بينها في مراتب علومها وأعمالها وقواها وأخلاقها. فمن عرفها كما ينبغي شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، وله القوة كلها، والقدرة كلها، والعز كله، والحكمة كلها، والكمال المطلق من جميع الوجوه. وعرف بمعرفة نفسه صدق أنبيائه ورسوله. وأن الذي جاءوا به هو الحق الذي تشهد به العقول، وتقرّ به الفطر، وما خالفه هو الباطل، وبالله التوفيق،^(١).



ويعد..

إن الحديث عن النفس طويلاً طويلاً لا ينتهي إلى حسد، ولا يقف عند غاية.. وليس ما أوردناه عنها هنا في هذا الكتاب إلا قطرة من محيط..

ولقد ألف كثير من الفلاسفة والحكماء منذ قرون في موضوع النفس كتباً ومجلدات تعدّ بالآلاف. ومسال الـكتـاب والفلاسفة والمفكرون في كل عصر يكتبون، ومع ذلك فلن يصلوا إلى فهم النفس البشرية أكثر مما بيّنه الله تعالى عنها في كتابه العزيز. حيث إن

(١) كتاب «الروح لابن القيم» الطبعة الثالثة ١٩٦٦ ص ١١٧/١١٦.

العقل الإنسان مهما أوق من علم فلن يصل عن طريق النظر والتفكر إلى معرفة النفس الحقيقية. والسبيل على ذلك اختلاف علماء النفس والمفكرين في نظرتهم إليها.

ولا شك أن موضوع النفس - مع ذلك - جدير بالبحث والدراسة لا سيما إذا أدركنا توجيه الآية الكريمة لذلك العالم :

﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾

ومن دراسة النفس حسب المدارس القديمة التي كان الإغريق من أهم واضعي أسسها وبخاصة أفلاطون - كما أسلفنا القول - أخذ فلاسفة العرب وغيرهم من علماء الغرب من شتى الأمم، الكثير من هذه الأبحاث.

وظلت طويلاً تدرس على مدى العصور والأجيال حتى القرن التاسع عشر حينما ظهر في الغرب علماء من أمثال وليم جيمس وماكدوجال وغيرهما، ووضعوا لهذه الدراسات مناهج مرتبة ومنظمة، وجعلوا منها علماً قائماً بذاته هو علم «السيكولوجيا» أي «علم النفس»، ووضعوا له تعريفين :

أولهما: التعريف الاتباعي التقليدي الذي يكاد يكون عالمياً إلا وهو علم دراسة حوادث النفس. فالخلق البشري مكون من جسد وروح. وكما أن علم وظائف الأعضاء «الفيزيولوجيا» يصف حوادث الجسد ويحاول تفسيرها، فكذلك علم النفس يصف حوادث النفس

من حركات وصور وأفكار وعواطف وغيرها ويجاوب تفسيرها.

وأما التعريف المتأخر فقد اقتصت به المدرسة السلوكية، وهو علم دراسة السلوك البشرى أو دراسة الأعمال البشرية. وعلم النفس فى رأى هذه المدرسة لا يفعل أكثر من وصف أعمال الجنس البشرى بدقة شأنه فى ذلك شأن عالم الحيوان الذى يصف سلوك القمل مثلاً.

وكان من أصعب الأمور للاقدين من الفلاسفة أن يفهموا النفس فهماً صحيحاً لأنهم كانوا لا يفهمون المادة فهماً صحيحاً. وكانوا يقسمون المادة إلى أربعة عناصر: الماء، والهواء، والنار، والتراب. ولكن تبين فى العلم الحديث غير هذا وأن المادة لا تنتهى حتى بالذرة. بل إن هناك نظرية تقول بأن المادة شعاع متحرك^(١) وأن هناك من الناحية الرياضية أجساماً غير مادية تعلقو على مستوى الخواس، وأن هذه الأجسام غير المادية تتداخل فى الأجسام المادية حتى بالنسبة لأجسامنا الخاصة. وهذه الأجسام غير المادية يطلق عليها الآن وصف الأجسام الأثيرية كما يطلق عليها فى علم الروح المعاصر «النموذج» أو «المثال الأسمى» Arch Types. وهذه النماذج المطابقة للجسد المادى تحمل خصائص النفس من غرائز وميول، كما تحمل الوعى والروح، وتربط بينها فى إطار يمثل العنصر الباقى أو الخالد فى الإنسان أو كما وصفه «يونج» Yung بأنه الإنسان السامى، أى

(١) نظرية الدكتور مشرفة واينشتاين.

العنصر الخالد أو اللوهوب للخلود في الإنسان، وهو حامل شعلة العقل والروح^(١).

وكلمة «بسيكولوجي» Psychology يونانية مركبة من كلمتين، الأولى Psych «سايك» ومعناها «النفس» والثانية «لوجي» Logy، ومعناها «العلم». ولما كانت هذه التسمية تنطبق على هذا العلم انطباقاً جيداً حوافظ عليها حتى اليوم.

«واخذت السيكلوجي تتطور على أيدي فرويد وتلاميذه وأدخلوا عليها اكتشافات علمية جديدة. وكانت بدورها موضعاً للمناقشة، وخرجت منها آراء جديدة على أيدي أدلر، ويونج، وريقرز، وغيرهم، بعد أن ظل علماء النفس طويلاً فيما سلف يتجاهلون التنويم المغنطيسي لأنهم لم يعلموا أين يضعونه من إطار معارفهم. وبعد أن ظلوا طويلاً وهم يكادون يحسبون أنهم غير مطالبين يبحث الظواهر العقلية التي لا يمكن اعتبارها واعية، مثل الأحلام، والهستيريا، والجنون، والتنويم المغنطيسي»^(٢).

وأصبح لهذا الموضوع مدارس مختلفة ومذاهب متعددة، وعلومًا

(١) راجع كتاب «مفصل الإنسان بوج لا جسد» للدكتور رهوف عبيد، الجزء الأول طبعة رابعة ص ٨٤٤ - ٨٨٩.

(٢) عن كتاب «النظرة العلمية» تأليف برتراند راسل، تعريب الدكتور عثمان نوبة ص ١٦٥.

فرعية شتى. فهناك : علم النفس الفردي، والتربوي، والاجتماعي والجنائي، والصناعي، والعمل، وما إلى ذلك من بحوث في الشخصية والذكاء وملكات النفس إلخ. . ومع ذلك فما يزال التطور العلمي حتى هذه اللحظة سائرًا في طريقه سيرًا حثيثًا ويدخله في كل يوم كشف جديد. وما يزال العلماء في بداية البحث وعلى عتبة الكشوف، وما تزال آيات الله الرائعة الخالدة في أعطاف هذه النفس العجيبة..

ومن هذه المدارس التطورة في العصر الحديث ظهر علماء روجيون تميزوا بين السيكولوجي Psychology (علم النفس)، وبين السيكيك Psychic Science (علم الروح). وقالوا إن الأول يشمل النفس عامة من جميع نواحيها، ويبحث عن القواعد الأصلية لحياة العقل وعملياته وصورها، ومظاهرها المتعددة؛ بينما يختص الثاني بموضوع الروح وأسرارها وكنهها وخلودها.

وكانت خطوة جريئة للأمام من بعض العلماء النفسيين في طريق التسليم بما وصل إليه بحاث الروح من أن مبادئ الباراسيكولوجي وما وراء الروح هما الوسيلة المعترف بها علمياً للبحث في الروح، وفيما يتصل بخصائصها وملكانها واستقلالها عن الجسد المادي، و «احتمال» بقائها بعد موت هذا الجسد.

فلقد كان هؤلاء العلماء - من قبل - يقفون موقفًا عدائياً صريحاً

من علم الروح ومن نتائجه الإيجابية، فأصبحوا يقفون الآن موقف
التسليم الصريح، أو الحياد الصريح، بعد أن ظهر بجلاء صحة
ما شاهدوه من أن نتائج البحوث الروحية قد أصبحت حقائق علمية
مترابطة فيما بينها، وفي الوقت نفسه مرتبطة بحقائق الفلسفة، بل أيضا
بحقائق العلوم الأخرى وثيق ارتباط. تستوى في ذلك حقائق علمي
النفس والأخلاق مع حقائق الفيزياء والرياضة.

أما وقد اجتلبنا الحديث إلى ذكر الروح، وهو الجزء الثالث
والهام من تكوين الإنسان فلا مندوحة من أن نلمّ به إلمامة سريعة
مسترشدين برأى علماء الروح فيما يختص بموضوعه بعد أن عرفنا
ما فيه الكفاية عن النفس ومظاهرها وما قيل فيها من جميع
نواحيها.. وليكن موضوع «علم الروح» هو موضوع حديثنا في كتاب
خاص آخري.. فالروح ليست أقلّ شأنًا من النفس في أهميتها.. وإذا
كانت النفس كما قلنا أصبح لها علم خاص يدرس في المدارس
والجامعات. فالروح أيضا أصبح لها في معظم الدول الغربية معامل
خاصة بها وكراسي في الجامعات، وجمعيات عالمية كبيرة معترف بها في
جميع أنحاء العالم.

والروحية وحدها هي التي تستطيع أن تطلع الوجود على حقيقة
النفس وعجائبها وعمقها وإحاطتها وسيطرتها على الجسد، وسموها أو
انحطاطها، وتصرفها المطلق في المادة..

ولقد تحدّث في ذلك كثير من الفلاسفة والصوفية الكرام في كل
أمة، وبينوا أن النفس حينما تصفو وترقى وتلطف تحدّث من التصرفات
العجيبة في المادة ما يعتبر خرقاً لقوانين المادة التي ألفها الناس.

المراجع

- ١ - القرآن الكريم
- ٢ - حياة الحيوان للدميري.
- ٣ - إزالة اللبس عن حقيقة النفس للسيد إدريس بن الشريف الحسيني العلوي.
- ٤ - الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدى تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين.
- ٥ - دراسات في الفلسفة الإسلامية : للدكتور محمود قاسم.
- ٦ - في النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام : للدكتور محمود قاسم.
- ٧ - فصوص الحكم : للشيخ محيي الدين بن عربي.
- ٨ - بلوغ الأرب : للألوسي.
- ٩ - عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات : للقزويني.
- ١٠ - الثمرة المرضية : للفارابي.
- ١١ - المطالب القدسية في أحكام الروح وآثارها الكونية : للشيخ محمد حسنين مخلوف.

- ١٢ - الحياة الأخرى : للدكتور عبد الرزاق نوفل .
- ١٣ - راجا يوجا : للأستاذ حسن حسين .
- ١٤ - تهذيب الأخلاق : لابن مسكويه .
- ١٥ - فلسفة الأخلاق في الإسلام : للدكتور محمد يوسف موسى .
- ١٦ - البصائر والزخائر : تحقيق أحمد أمين والسيد صقر .
- ١٧ - المقابسات : تحقيق حسن السندوي .
- ١٨ - أبو حيان التوحيدى (سلسلة أعلام العرب رقم ٣٥) :
للدكتور زكريا إبراهيم .
- ١٩ - دائرة المعارف الإسلامية .
- ٢٠ - أحوال النفس : تحقيق الدكتور أحمد فؤاد الأهواني .
- ٢١ - هدية الرئيس للأمير : لابن سينا : تحقيق إدوارد كرينليوس
فنديك .
- ٢٢ - معارج القدس في مدارج معرفة النفس : للغزالي .
- ٢٣ - فلسفة الأخلاق : للشيخ محي الدين بن عربي .
- ٢٤ - إخوان الصفا : للدكتور جبور عيد النور .
- ٢٥ - رسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها : لابن سينا .
- ٢٦ - قلائد العقيان ووفيات الأعيان : لابن خلكان .
- ٢٧ - مقالة مختصرة في النفس البشرية : لابن العبري : تحقيق الأب
لويس شيخو اليسوعي .
- ٢٨ - شذرات الذهب : لابن العماد .

- ٢٠ - طبقات الأطباء : لابن أبي أصيبعة.
- ٢١ - السهروردي (سلسلة نوايغ الفكر العربي) : للأستاذ سامي الكيالي.
- ٢٢ - قصيدة النفس لابن سينا : شرح العلامة زين الدين عبد الرؤوف المناوي.
- ٢٣ - كتاب الروح لابن القيم الجوزية.
- ٢٤ - الله : للأستاذ عباس محمود العقاد.
- ٢٥ - سر الحياة في النفس والإنسان : للمسعودي.
- ٢٦ - الطاقة الروحية : لهزري برجسون : ترجمة سامي الدروبي.
- ٢٧ - اليوجا ينبوع السعادة : للأستاذ عباس المسيري.
- ٢٨ - العقل منبع الحكمة : دار الفكر العربي.
- ٢٩ - الأحلام والرؤى (سلسلة اقرأ) . للمؤلف
- ٣٠ - الروح والخلود (سلسلة اقرأ) للمؤلف.
- ٤٠ - معالم الطريق إلى الله : للسيد محمود أبو الفيض المنوفي.
- ٤١ - لمع اليقين في الكشف عن مناهج الفيضيين : للسيد أبو الفيض المنوفي.
- ٤٢ - مفصل الإنسان روح لا جسد : للدكتور رؤوف عبيد.
- ٤٣ - النظرة العلمية : لبرتراند راسل : ترجمة الدكتور عثمان نويه.
- ٤٤ - التفسير القرآني للقرآن : للأستاذ عبد الكريم الخطيب.

- ٤٥ - تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها للدكتور نجيب بدوى.
- ٤٦ - نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام للدكتور على سامى النشار.
- ٤٧ - مدرسة الحكمة للدكتور عبد الغفار مكاوى.
- ٤٨ - حضارة الإسلام ترجمة الأستاذ عبد العزيز جاويد.
- ٤٩ - قصة الفلسفة اليونانية للدكتورين أحمد أمين وزكى نجيب محمود.
- ٥٠ - أفلوطين عند العرب للدكتور عبد الرحمن بدوى.
- ٥١ - على هامش التاريخ المصرى القديم للأستاذ عبد القادر حمزة.
- ٥٢ - النهج القويم فى تاريخ شعوب الشرق القديم.
- ٥٣ - الخلود فى التراث الثقافى المصرى للدكتور سيد عويس.
- ٥٤ - المظاهر الحضارية للأستاذ سليم حسن.
- ٥٥ - فجر الضمير لجيمس هنرى ستيد ترجمة سليم حسن.
- ٥٦ - مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة لأدولف أرمان وهرمان رانكه.
- ٥٧ - فى التصوف الإسلامى وتاريخه. ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفى.

فهرس الكتاب

صفحة	
٥	تقديم للأستاذ عبد الكرم الخطيب
١٣	مقدمة للمؤلف
١٧	الإنسان
٢٨	تركيب الإنسان
٣٢	آراء الفلاسفة في النفس
٣٢	١ - فلاسفة اليونان
٣٢	رأى سقراط
٣٥	رأى أرسطو
٣٧	فيثاغورس
٣٨	هرقليطس
٣٨	ديموقريطس
٣٩	المدرسة الرواقية
٤٠	أفلاطون
٤٤	أسطورة الجامفيل

صفحة

٤٩.....	تعقيب على أسطورة البامبيلي
٥٧.....	النفس عند الهرامسة
٦٣.....	٢ - وماذا كان رأى أفلوطين؟
٧٧.....	خلود النفس عند القدماء
٧٩.....	محاكمة النفس عند القدماء
٩٢.....	عند فلاسفة العرب:
٩٥.....	حديث الرازي عن النفس
٩٧.....	رأى ابن مسكويه
١٠١.....	أبو حيان التوحيدى
١٠٣.....	رأى ابن سينا
١١٢.....	الغزالي
١١٤.....	ابن رشد
١١٦.....	ابن عربى
١١٩.....	ماذا قال إخوان الصفا فى النفس
١٢٦.....	هل تظل النفس حية بعد مفارقة الجسد؟
١٥٢.....	خلاف فى الرأى بين النفس والروح
١٥٤.....	رأى سيدى عبد الكريم الجليلى
١٥٦.....	رأى ابن القيم الجوزية
١٥٨.....	رأى قسطنطين لوقا

صفحة

والشيخ محمد متولى الشعراوى	١٦١.....
رأى الأستاذ عبد الكريم الخطيب	١٦٣.....
رأى هنرى برجسون	١٧٠.....
وغيرهم	١٧٣.....
أقسام النفس فى القرآن الكريم	١٨٠.....
مراتب النفس	١٨٦.....
المراجع	١٩٩.....

كتب أخرى للمؤلف

السنة		
١٩٣٢	: شعر منشور.	١ - آمال
١٩٣٣	: شعر منشور.	٢ - هيام
١٩٤٥	: من الواجهة السيكلوجية والبيولوجية.	٣ - مسألة الجنسين
١٩٤٦	: تدريب نفساني.	٤ - القوى العقلية
١٩٤٧	: أول دليل من نوعه عن الاسكندرية	٥ - دليل الاسكندرية
١٩٥٦	: دار المعارف (سلسلة اقرأ).	٦ - الأحلام والرؤى
١٩٦١	: دار المعارف (سلسلة اقرأ).	٧ - لكي تكون سعيداً
١٩٦٣	: دار المعارف (سلسلة اقرأ).	٨ - نحو حياة مشرقة
١٩٦٢	: دار المعارف طبعة أولى.	٩ - الطريق إلى النجاح
١٩٦٦	(سلسلة اقرأ) طبعة ثانية.	
١٩٧٠	: (دار المعارف).	١٠ - الروح والخلود بين العلم والفلسفة
١٩٧٧	: عن دار الفكر العربي	١١ - العقل منبع الحكمة

- ١٢ - العودة للتجسد في المفهوم العلمي الحديث (منشأة المعارف). ١٩٧٤
- ١٣ - الروحية طريق الحياة : المركز العربي للنشر والتوزيع. ١٩٧٩
- ١٤ - الشيخ طنطاوي جوهرى : دراسة ونصوص « دارالمعارف ». ١٩٨٠
- ١٥ - قوانا الكامنة وكيف نستغلها (سلسلة اقرأ). ١٩٨٣
- ١٦ - علم النفس : وكيف يمكن أن يساعدك. (المركز العربي للنشر والتوزيع)
- ١٧ - عقدة النقص : معناها وعلاجها. (المركز العربي للنشر والتوزيع)
- ١٨ - القلق : أسبابه وعلاجه. (المركز العربي للنشر والتوزيع).

رقم الإيداع	١٩٨٧ / ٤٧٨٠
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٠٢-٢١٠٥-٨

١ / ٨٦ / ٢٤١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.٠)

اقرا

بهذا الفعل الجميل (اقرا) : تدعوك
دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة
العريقة .. بأقلام كبار كتابنا .. لتعيش
معهم .. كما عاش الآباء والأجداد ..
وتكوّن في مكتبتك موسوعة متفرقة في فروع
المعرفة المختلفة .
وإيماناً منا بأن القراءة هي أقصر
الطرق إلى الوعي والثقافة .. فقد يسّرنا لك
ذلك في إخراج جيد .. وسعر زهيد .

٨٠

Bibliotheca Alexandrina



02333564

To: www.al-mostafa.com